

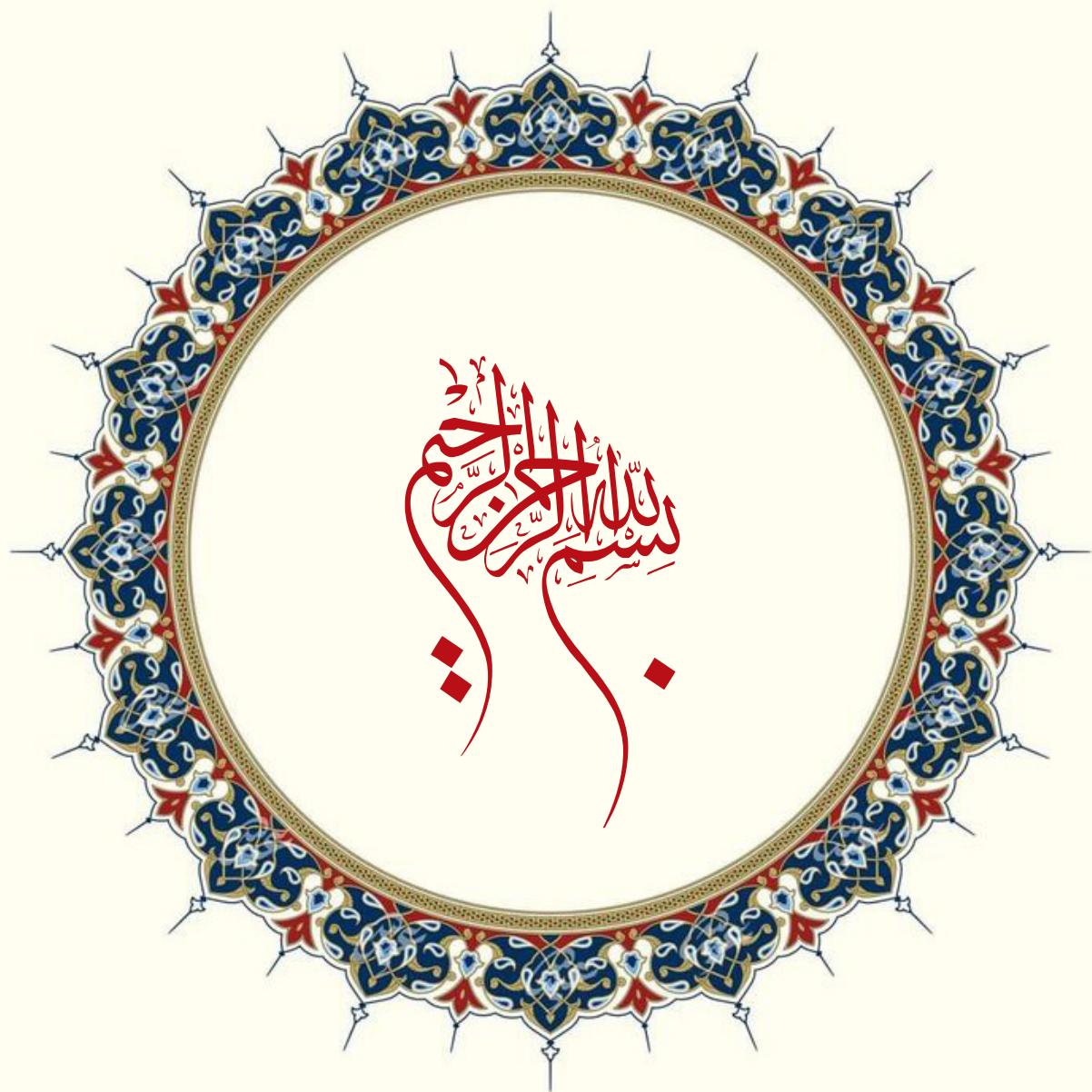
حوارات في

أسباب الخطأ في التفسير

نايل مستور الشريف



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعل فهمه من أجل العلوم وأشرفها، والصلاة والسلام على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبلغ عن ربه، المبين لكتابه، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من أعظم ما يُحتاج إليه في زماننا تقريب العلوم الشرعية للناس، وتقديمها بأساليب تعليمية تجمع بين صحة العلم وحسن العرض، إذ ليس المقصود من العلم أن يُحفظ في بطون الكتب فحسب، وإنما المقصود أن يفهم، وأن يتحول إلى بصيرة ومنهج وملكة راسخة.

ومن العلوم التي تشتد الحاجة إلى تقريبها وتبسيطها: علم التفسير، ولا سيما ما يتعلق بأسباب الخطأ في فهم كتاب الله تعالى؛ فإن معرفة الصواب تكتمل بمعرفة أصداده، وكما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء». ولهذا كان العلماء يعتنون ببيان موارد الخطأ ومزالق الفهم؛ حمايةً لجناح القرآن، وصيانةً لمعانيه من التحريف والزلل.

وقد كان الأصل الذي انطلق منه هذا العمل رسالة علمية نفيسة
بعنوان: «أسباب الخطأ في التفسير: دراسة تأصيلية»

للدكتور طاهر محمود محمد يعقوب، وهي من الدراسات المتميزة
التي جمعت أسباب الخطأ في التفسير، وحررت مسائلها، وساق
نماذجها وأمثلتها من كتب التفسير ومناهج المفسرين.

ولما كانت الرسائل العلمية تُكتب غالباً بلغة أكاديمية تناسب
المتخصصين، نشأت فكرة هذا المشروع، وهي: إعادة تقديم تلك المادة
العلمية بأسلوب حوار تعليمي مبسط، يقرب الفكرة إلى طالب العلم،
ويحول القواعد النظرية إلى مشاهد حية، والأمثلة المجردة إلى حوارات
تربوية يتدرج القارئ معها في اكتشاف الخطأ ومعرفة وجه الصواب.

فجاءت هذه الحوارات في صورة مجالس بين شيخ وطالب؛ يطرح
الطالب إشكالاً أو شبهة أو تفسيراً وقع فيه الخطأ، ثم يأخذ الشيخ بيده
خطوة خطوة حتى يقف على سبب الزلل، ويكتشف بنفسه موطن
الخلل، ثم يتعرف على المنهج الصحيح الذي سلكه أئمة التفسير.

وليس المقصود من هذه الحوارات تتبع أخطاء العلماء أو التشهير
بالمخالفين، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ،
وإنما المقصود إبراز المناهج والأسباب التي أوقعت أصحابها في الخطأ،

حتى يكون طالب العلم على بصيرة من أمره، ويكتسب ملكةً تعصمه -
بإذن الله - من الوقوع في تلك المزالق.

وسيجد القارئ أن هذه الرحلة لا تقتصر على بيان الخطأ فحسب، بل
تكشف له أصول التفسير الصحيح، وقواعد الترجيح، ومنهج السلف،
وآثر اللغة العربية، ومكانة السنة، وخطورة الأهواء والبدع، وأهمية فهم
مقاصد القرآن الكريم.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع
به كاتبه وقارئه، وأن يرزقنا جميعًا فهم كتابه على الوجه الذي يرضيه، إنه
ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



الباب الأول

العدول عن مصادر التفسير الأصلية وأصوله الصحيحة الثابتة

حين يضل المسافر الطريق فإن أول ما يُنظر إليه: من أين بدأ الانحراف؟

وكذلك الخطأ في التفسير؛ فكثير من الزلل لم ينشأ من سوء القصد، وإنما بدأ من الابتعاد عن المصدر الصحيح الذي يُفهم منه كلام الله تعالى.

فالقرآن لم يترك الناس يتخطون في معانيه، بل جعل الله لفهمه أصولاً واضحة، من أهمها: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، والرجوع إلى فهم الصحابة والتابعين، والاستضاءة بلغة العرب التي نزل بها القرآن.

وحين يُعرض عن هذه الأصول، أو يُقدّم عليها الضعيف والواهى، أو الهوى والرأي المجرد، يبدأ الخطأ في التسلل إلى التفسير.

وفي هذا الباب سنشاهد نماذج متعددة لأخطاء كان منشؤها الابتعاد عن المصادر الصحيحة، لنذكر أن أول خطوة في الطريق الصحيح إلى فهم القرآن هي: أن نأخذ التفسير من منابعه الأصيلة.

الفصل الأول

الاجتهاد في تفسير الآية مع وجود النص المفسر لها

❁ سبب الخطأ :

أن يترك المفسر التفسير الثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يجتهد في حمل الآية على معنى آخر يحتمله اللفظ

المشهد الأول: «ولكن الآية تحتمل هذا المعنى!»

جلس الطالب بين يدي شيخه وقد بدا عليه السرور، ثم قال:

الطالب: يا شيخ، كنت أتأمل قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ

وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: آية ٢٦]، فخطر لي أن الزيادة هي زيادة النعيم والثواب في الجنة.

وأرى أن هذا معنى حسن، بل ظاهر في الآية.

ابتسم الشيخ وقال: قبل أن أسألك عن المعنى... أسألك سؤالاً

آخر: هل بحثت عن تفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الآية؟

توقف الطالب قليلاً ثم قال: لا يا شيخ ولكن اللفظ يحتمل ذلك.

فقال الشيخ: لو أن طبيباً كتب وصفةً لمريض، ثم جاء الطبيب نفسه

فشرح مراده منها... فهل نترك شرحه ونرجع إلى احتمالات ألفاظ الوصفة؟

قال الطالب: لا. بل شرحه هو المعتمد.

قال الشيخ: فكيف إذا كان المفسر هو رسول الله ﷺ؟

ثم فتح الشيخ كتاب السنة وقال: قال رسول الله ﷺ في حديث صهيب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة... فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ».**

ثم تلا: **﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾** [سورة يونس: آية ٢٦].

سكت الطالب قليلاً ثم قال: إذن النبي ﷺ فسر الزيادة بالنظر إلى الله؟

قال الشيخ: نعم. وهنا ينبغي أن تتغير طريقة السؤال فالسؤال لم يعد: ماذا تحتمل الآية؟

بل أصبح: ماذا أراد الله بالآية؟ وقد أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

الطالب: لكن يا شيخ... أليس من الممكن أن تكون الرؤية داخلة ضمن زيادة الثواب؟

ابتسم الشيخ وقال: فرق بين أن تقول: الرؤية من أعظم ثواب أهل الجنة وبين أن تفسر «الزيادة» في الآية بغير ما فسر بها به النبي ﷺ.

الأول صحيح أما الثاني فعدول عن البيان النبوي.

ثم أضاف: ولهذا قال العلماء: إذا ثبت التفسير عن رسول الله ﷺ لم يجز العدول عنه.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن المشكلة ليست في أن المعنى الذي ذكرته مستحيل أو فاسد في نفسه... وإنما في أنني تركت التفسير النبوي إلى احتمال آخر.

فقال الشيخ: أحسنت وهذه من أولى الخطوات في فهم أسباب الخطأ في التفسير.

❁ أين وقع الخطأ؟

لم يقع الخطأ في اللغة (فالزيادة) تحتمل في اللغة أنواعاً كثيرة.

ولم يقع الخطأ في حسن القصد وإنما وقع الخطأ في: تقديم الاجتهاد على النص المفسر للآية.

❁ من آثار هذا السبب

■ آية الظلم

فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ٨٢] بالشرك، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [سورة لقمان: آية ١٣].

ومع ذلك حمل بعض المفسرين الظلم على المعاصي المفسدة، ومن أشهر من قرر ذلك محمود بن عمر الزمخشري.

■ آية المغضوب عليهم

فسر النبي ﷺ المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى.

ومع ذلك أعرض بعض المفسرين عن هذا البيان إلى تفسيرات عامة لا تستند إلى النص النبوي.

❁ فما التفسير الصحيح؟

التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: آية ٢٦]

أن: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الجنة.

والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم وهو أعظم نعيم أهل الجنة وأكمله. وقد دل عليه تفسير النبي ﷺ نفسه، فلا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقد نبه محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية إلى أن الله عطف «الزيادة» على «الحسنى»، والعطف يقتضي المغايرة، فدل على أنها نعيم زائد على نعيم الجنة.

❁ القاعدة الذهبية:

(إذا ثبت تفسير النبي ﷺ للآية فلا يجوز العدول عنه إلى تفسير يخالفه)

❁ خلاصة المشهد

كلما ازداد المفسر قرباً من البيان النبوي قلَّ خطؤه، وكلما ابتعد عنه كثرت احتمالات الزلل، ولو كان واسع العلم باللغة والرأي.



الفصل الثاني

الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة

❁ سبب الخطأ :

أن يبنّي المفسر معنى الآية على رواية لم تثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو على خبر لا يصح الاحتجاج به.

المشهد الثاني: «وجدت تفسيراً عجيباً لهذه الآية!»

دخل الطالب مجلس شيخه يحمل كتاباً من كتب التفسير، وقد بدت عليه علامات الإعجاب بما قرأ.

الطالب: يا شيخ، كنت أقرأ في تفسير قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [سورة الأعراف: الآيات ١٨٩-١٩٠].

فوجدت حديثاً يفسر هذه الآية.

الشيخ: وما هو؟

الطالب: ذكر عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

ثم قال بعضهم: إن الشرك المذكور في الآية هو ما وقع من آدم وحواء حين سميا ابنهما عبد الحارث.

فسكت الشيخ قليلاً ثم قال: يا بني، قبل أن نسأل: هل هذا تفسير الآية؟

ينبغي أن نسأل: هل ثبت هذا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الطالب: أليس وجوده في بعض كتب التفسير كافياً؟

ابتسم الشيخ وقال: لو كان كل ما في كتب التفسير صحيحاً لما احتاج العلماء إلى علم الحديث.

إن كتب التفسير تجمع الروايات، ثم يأتي دور العلماء في تمييز صحيحها من سقيمها.

الطالب: إذن أول ما ننظر إليه هو صحة الرواية؟

الشيخ: نعم. وقد تكلم أهل العلم في هذا الحديث وبينوا أنه لا يثبت مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشيخ: ثم دعني أسألك سؤالاً آخر.

لو لم تعرف حكم المحدثين على الحديث، هل ترى في القصة شيئاً يدعوك إلى التوقف؟

الطالب: تردد الطالب قليلاً ثم قال: كيف ذلك؟

الشيخ: تأمل ما يترتب على هذه الرواية.

إنها تنسب إلى آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أنه سمى ولده تعبيداً لغير الله، ثم تجعل ذلك هو الشرك المذكور في الآية.

فهل يجوز أن ننسب إلى نبي من أنبياء الله أمراً بهذا الحجم بخبر لم يثبت؟

ساد المجلس صمت قصير.

ثم قال الطالب: إذن المشكلة ليست في ضعف الرواية فقط... بل فيما يترتب عليها من معانٍ.

الشيخ: أحسنت. ولهذا كان العلماء لا ينظرون إلى الإسناد فقط، بل ينظرون كذلك إلى المتن.

فإذا جاءت رواية تخالف الأصول المحكمة، أو تقدح في مقام الأنبياء، أو تناقض ما ثبت في نصوص الشرع، كانت أدعى للرد والإنكار.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن قد يقع الخطأ في التفسير لأن المفسر وثق بخبر لا يثبت، ثم بنى عليه معنى الآية.

فقال الشيخ: وهذا من أشهر أبواب الخطأ في كتب التفسير. فكم من معنى شاع بين الناس، وأصله رواية لا تثبت.

❁ أين وقع الخطأ؟

لم يقع الخطأ أولاً في فهم الآية بل وقع في:

١. قبول رواية ضعيفة.
٢. بناء تفسير الآية عليها.
٣. نسبة ما لا يليق بمقام النبوة اعتماداً على خبر غير ثابت.

❁ من آثار هذا السبب

قصة «عبد الحارث» في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

اعتمد بعض المفسرين على هذه الرواية، فبنوا عليها أن الشرك وقع من آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وقد أنكرها جمع من المحققين لضعفها ولمخالفتها للأصول الشرعية.

✽ أحاديث كثيرة في فضائل السور.

بُنيت عليها تفسيرات وفضائل لا أصل لها، لكونها أحاديث موضوعية أو شديدة الضعف.

✽ بعض الروايات الواهية في قصص الأنبياء.

دخل بسببها إلى بعض كتب التفسير ما لا يليق بمقامات الأنبياء والمرسلين.

✽ فما التفسير الصحيح؟

اختلف المفسرون في تفسير الآية على أقوال وأقربها - وهو الذي رجحه كثير من المحققين - أن الضمائر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾.

انتقلت من الحديث عن آدم وحواء إلى الحديث عن المشركين من ذريتهما فالمقصود ذم من أشرك من بني آدم بعد أن رزقهم الله الأولاد والنعم.

أما نسبة الشرك إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فليس عليها دليل صحيح يثبت

❁ فائدة نفيسة

إذا تعارض تفسير مبني على رواية ضعيفة مع ما تقرر من تعظيم مقام الأنبياء وعصمتهم، فإن الرواية تُرد ولا يُحمل القرآن عليها.

❁ القاعدة الذهبية:

(لا يجوز بناء تفسير القرآن على حديث ضعيف أو موضوع).

❁ خلاصة الفصل

قد تُفسد روايةً ضعيفةً فهمَ آيةٍ كاملةٍ وقد تنسب إلى الأنبياء ما برأهم الله منه ولذلك كان التثبت من الروايات حارساً من أعظم حراس فهم القرآن



الفصل الثالث

الأخذ بالإسرائيليات

❁ سبب الخطأ :

الاعتماد على الأخبار المأخوذة من أهل الكتاب في تفسير القرآن دون تمييز صحيحها من باطلها.

المشهد الثالث: «هل كان طوله ثلاثة آلاف ذراع؟»

جلس الطالب بين يدي شيخه يقلب بعض كتب التفسير، ثم رفع رأسه متعجبًا.

الطالب: يا شيخ، قرأت اليوم قصة عجيبة!

الشيخ: وما هي؟

الطالب: كنت أقرأ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [سورة المائدة: آية ١٢]. فوجدت من يذكر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل النقباء ليستكشفوا أخبار الجبابرة ثم ذكر قصة رجل منهم يقال له: «عوج بن عنق».

وقيل: «إن طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاث وثلاثون ذراعًا وثلاث ذراع!»

وأنه كان يتناول الحوت من قاع البحر، ثم يرفعه إلى عين الشمس فيشويه ويأكله!

ثم نظر الطالب إلى شيخه وقال: أحقاً وقع هذا؟

ابتسم الشيخ وقال: قبل أن نسأل: هل وقع هذا؟

فلنسأل أولاً: من أين جاء هذا الخبر؟

الطالب: وجدته في بعض كتب التفسير.

الشيخ: ووجود الخبر في كتاب تفسير لا يعني صحته وهل تعلم ما اسم هذا النوع من الأخبار غالباً؟

الطالب: لا.

الشيخ: هذه من الأخبار التي دخلت إلى بعض كتب التفسير عن طريق الإسرائيليات.

أي الأخبار المنقولة عن أهل الكتاب.

الطالب: وما المشكلة إذا كانت مجرد قصة؟

الشيخ: المشكلة أن القارئ قد يظن أن هذا تفسير للقرآن ثم تتحول هذه الأخبار شيئاً فشيئاً إلى حقائق مسلّمة ثم قال الشيخ: تأمل يا بني، هل تعرف كم يبلغ طول ثلاثة آلاف ذراع؟

فضحك الطالب وقال: هذا أشبهه بالأساطير منه بالوقائع!

الشيخ: ولهذا كان العلماء ينقدون مثل هذه الروايات.

فإن الشريعة لم تأت لتملاً العقول بالخرافات والعجائب التي لا زمام لها ولا خطام.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن ليست كل قصة تُذكر عند تفسير الآية تكون جزءاً من تفسيرها.

الشيخ: أحسنت بل كثير من هذه الأخبار لا تزيد القارئ فهماً للآية وإنما تشغله بتفاصيل لم يذكرها القرآن، ولم تثبت عن النبي ﷺ.

❁ أين وقع الخطأ؟

لم يقع الخطأ في الآية بل وقع في:

١. إدخال أخبار أهل الكتاب في التفسير دون تمحيص.
٢. الانشغال بالتفاصيل التي سكت عنها القرآن.
٣. نقل الروايات الغريبة دون نقد أو تمييز.

❁ من آثار هذا السبب

١. قصة عوج بن عنق وما نُسب إليه من أوصاف عجيبة.
٢. المبالغات في أوصاف الجبابة وأحجامهم.
٣. كثير من التفاصيل المتعلقة بأسماء الأشخاص والأماكن والأعداد التي سكت عنها القرآن.
٤. بعض القصص المتعلقة بأنبياء بني إسرائيل التي لا أصل لها في الوحي.

❁ فما التفسير الصحيح؟

المقصود من الآية: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

بيان ما أخذه الله على بني إسرائيل من الموائيق، وما أقامه عليهم من الحُجج، وما كلفهم به من الطاعة والوفاء بالعهد.

أما أسماء الجبابرة، وأطوالهم، وهيئاتهم، وأوصافهم، فكل ذلك خارج عن المقصود الذي سيقَت الآية لأجله.

فالقرآن أراد منا أن نتدبر العبرة، لا أن نفتش عن التفاصيل التي سكت عنها الوحي.

❁ فائدة نفيسة:

(ما سكت عنه القرآن والسنة فلا يُطلب تعيينه إلا بدليل صحيح).

❁ القاعدة الذهبية:

«الإسرائيليات ليست مصدرًا مستقلًا لتفسير القرآن».

❁ ثمرة الفصل

كلما ازداد المفسر تعلقًا بالوحي الصحيح، قلَّت حاجته إلى الأخبار
الواهية والقصص الغريبة.



الفصل الرابع

الاعتماد على الظنون والحكايات

❁ سبب الخطأ :

أن يُبنى تفسير القرآن على حكاية أو قصة أو منام أو ظن لا يقوم عليه دليل معتبر.

المشهد الرابع: «لكن القصة مؤثرة جداً!»

دخل الطالب مجلس شيخه وفي يده كتاب تفسير، وقد بدا عليه التأثر بما قرأ.

الطالب: يا شيخ، وقفت على قصة عجيبة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: آية ٦٤].. وقد ذكرها عدد من المفسرين.

الشيخ: وما هي؟

الطالب: ذكر العتبي أنه قال: «كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾».

وقد جئتكم مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول
أبياتاً من الشعر وانصرف.

قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في المنام فقال:
«يا عتبي، الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

ثم رفع الطالب رأسه وقال: أليست هذه القصة دليلاً على معنى
الآية؟

ابتسم الشيخ وقال: قبل أن نسأل: «ماذا تدل عليه القصة؟»

فلنسأل أولاً: «هل القصة نفسها حجة؟»

توقف الطالب قليلاً.

الشيخ: يا بني، لو فتحنا باب الحكايات والمنامات في تفسير القرآن،
فكم من إنسان سيأتي غداً ويقول: «رأيت رؤيا تدل على أن معنى الآية
كذا!»

وأخر يقول: «سمعت قصة تدل على أن المراد كذا!»

فكيف يستقيم فهم القرآن إذن؟

الطالب: إذن ليست كل قصة مؤثرة تصلح أن تكون دليلاً؟

بل هذا هو المقصود

فكم من قصة تهز المشاعر... لكنها لا تصلح أن تُجعل مصدرًا
لتفسير كلام الله.

ثم قال الشيخ: أخبرني: هل تفسير القرآن يؤخذ من: - القرآن؟ -
والسنة؟ - وأقوال الصحابة؟ - ولسان العرب؟
أم يؤخذ من المنامات؟

الطالب: بل من الوحي والعلم.

الشيخ: أحسنت.

أما الرؤيا الصالحة فقد تكون بشرى لصاحبها لكنها ليست مصدرًا
من مصادر التشريع ولا طريقًا لتفسير القرآن.

الطالب: ولكن يا شيخ... لماذا ذكر بعض المفسرين هذه الحكاية؟

الشيخ: ليس كل ما يذكره المفسر يذكره محتجًا به.

فالمفسرون كثيرًا ما يوردون الروايات والحكايات والآثار ويبقى
على طالب العلم أن يميز بين:

* «ما يُروى».

* و«ما يُحتج به».

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ ليس في رواية القصة فقط وإنما في تحويلها إلى دليل يفسر به القرآن.

فقال الشيخ: أحسنت.

وهذا باب دخل منه على بعض الناس كثير من الأوهام والظنون. فصاروا يفسرون القرآن بالقصص المشهورة، والمنامات المتداولة، والحكايات المؤثرة.

أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. الاعتماد على حكاية لا تقوم بها حجة.
٢. جعل المنام مصدرًا لفهم القرآن.
٣. تفسير الآية بقصة لا دليل على صحتها.
٤. تقديم التأثر الوجداني على الدليل العلمي.

❁ من آثار هذا السبب

١. حكاية العتبي المشهورة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ...﴾ وقد استدل بها بعض الناس في تقرير معانٍ لم يدل عليها دليل صحيح.
٢. التفسيرات المبنية على المنامات والرؤى.
٣. القصص المتناقلة بين الوعاظ والخطباء دون تثبت من أسانيدها أو دلالاتها.
٤. الحكايات التي تشتهر بين الناس حتى يظن أنها من تفسير القرآن وهي لا أصل لها.

❁ فما التفسير الصحيح؟

الآية تحدث عن قوم وقعوا في الذنب في حياة النبي ﷺ فأرشدهم الله إلى طريق التوبة: «أن يأتوا إلى الرسول ﷺ معتذرين تائبين». «وأن يستغفروا الله».

«وأن يستغفر لهم الرسول ﷺ». ولهذا قال تعالى: ﴿جَاءُوكَ﴾

أي: جاءوا إلى النبي ﷺ وقال: «وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ

الرَّسُولُ﴾ أي: دعا لهم الرسول ﷺ واستغفر لهم.

فالآية تتحدث عن واقعة تقع زمن حياته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وعن أثر استغفاره ودعائه للمذنبين.

أما حكاية الأعرابي ومنام العتبي فليست هي التي يفسر بها معنى الآية.

❁ فائدة نفيسة

الرؤى الصالحة قد تكون بشارة لصاحبها، لكنها ليست مصدرًا لتفسير القرآن ولا لإثبات الأحكام.

❁ القاعدة الذهبية

لا يجوز بناء تفسير القرآن على الظنون والحكايات والمنامات التي لا تقوم بها حجة شرعية.

❁ خلاصة الفصل

قد تؤثر القصة في القلب... لكن تأثيرها لا يجعلها دليلًا.
فالقرآن يُفسَّر بالوحي والعلم والبرهان، لا بالأحلام والحكايات والظنون



الفصل الخامس

الاعتماد على مجرد اللغة وتقديمها على الأثر الصحيح

سبب الخطأ:

أن يعتمد المفسر على احتمال لغوي مجرد، ثم يقدمه على التفسير الثابت عن السلف وأهل العلم.

فاللغة من أعظم أدوات التفسير، لكنها ليست المصدر الوحيد له.

المشهد الخامس: «لكن العربية تدل على ذلك!»

جلس الطالب بين يدي شيخه وقد بدا عليه الفرح بما توصل إليه.

الطالب: يا شيخ، كنت أتأمل قول الله تعالى في وصف يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة آل

عمران: آية ٣٩]. فوجدت تفسيرًا أعجبنى.

الشيخ: وما هو؟

الطالب: ذكر بعض أهل اللغة أن معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي:

بكتاب من الله.

واستدلوا بأن العرب قد تسمي القصيدة كلمة، وتسمي الخطبة كلمة.

فلا مانع أن تكون الكلمة هنا بمعنى الكتاب.

ابتسم الشيخ وقال: وهل العربية تحتمل هذا المعنى؟

الطالب: نعم.

الشيخ: لكن عندي سؤال: هل كل معنى تحتمله العربية يكون هو المراد في القرآن؟

توقف الطالب قليلاً.

الشيخ: لو كان الأمر كذلك، لما احتجنا إلى تفسير الصحابة والتابعين ولصار كل من عرف اللغة قادراً على تفسير القرآن كيف شاء.

الطالب: إذن أين موطن الخطأ؟

الشيخ: الخطأ ليس في اللغة، فاللغة حجة عظيمة لكن الخطأ في تقديم الاحتمال اللغوي على التفسير المنقول.

ثم قال الشيخ: أتدري ماذا قال السلف في هذه الآية؟

الطالب: لا.

الشيخ: جاء عن ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد والسدي والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: أن المراد بقوله: «﴿بِكَلِمَةٍ

مِّنَ اللَّهِ﴾» هو: عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الطالب: ولماذا سُمِّي عيسى كلمة الله؟

الشيخ: لأنه خُلِقَ بكلمة الله: «كن». فوجد من غير أب.

ثم قال الشيخ: أخبرني الآن إذا وجدنا تفسيراً منقولاً عن السلف،
ووجدنا احتمالاً لغوياً مجرداً... فأيهما أولى بالاتباع؟

الطالب: التفسير المنقول

الشيخ: أحسنت فإن اللغة تُعين على فهم التفسير أما أن نجعلها
معارضة له فهنا يبدأ الخطأ.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن ليست المشكلة في صحة المعنى اللغوي بل في
تقديمه على ما ثبت عن السلف.

فقال الشيخ: وهذه من أدق أبواب الخطأ في التفسير.

فكم من قول نشأ من معنى لغوي محتمل، ثم ترك بسببه التفسير
الصحيح.

❁ أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. الاكتفاء بالاحتمال اللغوي.
٢. ترك التفسير المنقول عن السلف.
٣. جعل اللغة حاکمة على الأثر بدل أن تكون خادمة له.

✽ من آثار هذا السبب

تفسير قوله تعالى: «﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾» بالكتاب من الله، مع وجود التفسير المأثور بأن المراد عيسى عليه السلام.

بعض الأقوال التي تنشأ من التوسع في الاحتمالات اللغوية دون النظر إلى أقوال السلف.

التفسيرات التي تعتمد على المعجم اللغوي وحده، مع إغفال السياق والأثر.

✽ فما التفسير الصحيح؟

المراد بقوله تعالى: «﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾» أي: مصدقاً بعيسى بن مريم عليه السلام.

وقد تواتر هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين وسمي عيسى «كلمة الله» لأنه خُلق بكلمة الله: «كن».

فكان يحيى عليه السلام أول من صدق بعيسى وآمن برسالته.

✽ فائدة نفيسة

إذا اجتمع التفسير المأثور والاحتمال اللغوي، فالتفسير المأثور هو المقدم، واللغة تُفهم في ضوئه.

القاعدة الذهبية

ليس كل معنى صحيح في العربية صحيحًا في التفسير.

خلاصة الفصل

اللغة مفتاح لفهم القرآن لكنها ليست الباب الوحيد.
فإذا تكلم السلف في معنى الآية، لم يجوز أن نترك تفسيرهم إلى
احتمال لغوي مجرد.

فاللغة خادمة للتفسير الصحيح، لا حاكمة عليه



الفصل السادس

الاعتماد على الفروض المجازية والتذرع بالتمثيل والتخييل

❁ سبب الخطأ :

صرف النص عن ظاهره إلى المجاز أو التخييل أو التمثيل من غير دليل يقتضي ذلك.

المشهد السادس : « أليس هذا من باب التصوير البلاغي؟ »

جلس الطالب بين يدي شيخه وقد بدا عليه الإعجاب بما قرأ.

الطالب: يا شيخ، وقفت على تفسير لطيف جداً في قول الله تعالى:

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ» ﴿٣٠﴾ [سورة ق: آية ٣٠].

الشيخ: وما هو؟

الطالب: ذكر بعض المفسرين أن سؤال جهنم وجوابها ليس على

الحقيقة وإنما هو من باب التخييل والتمثيل.

أي أن المقصود تصوير كثرة من يدخلها، لا أنها تتكلم حقيقة.

وقد أعجبني هذا التفسير لما فيه من بلاغة.

ابتسم الشيخ وقال: جميل لكن دعني أسألك: ما الذي منعك من

حمل الآية على ظاهرها؟

توقف الطالب قليلاً.

الطالب: لأن النار جماد فكيف تتكلم؟

ابتسم الشيخ وقال: وهل جعل الله الكلام خاصاً بالبشر؟

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: أما قرأت قول الله تعالى: ﴿قَالَتَا أَئِنَّا لَطَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت:

آية ١١] في وصف السماء والأرض؟

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة يس: آية ٦٥]؟

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: آية ٢١]؟

الطالب: بلى.

الشيخ: فإذا أخبر الله أن الجلود تتكلم، وأن الأيدي تنطق، وأن

السماء والأرض تجيبان... فما الذي يمنع أن تتكلم جهنم إذا شاء الله؟

سكت الطالب طويلاً.

الشيخ: يا بني... السؤال ليس: هل أستطيع أن أتصور الكيفية؟ بل:

هل أخبر الله بذلك أم لا؟

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن العجز عن تصور الكيفية ليس سبباً لرد الحقيقة.

فقال الشيخ: أحسنت وكثير من الانحرافات بدأت حين جعل الناس عقولهم حاكمة على النصوص.

فإذا استبعدوا شيئاً أو لم يتصوروه فروا إلى التخيل والتمثيل.

✽ أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. العدول عن ظاهر النص بلا دليل.
٢. جعل التخيل مقدماً على الحقيقة.
٣. رد المعنى الحقيقي لمجرد استبعاد العقل للكيفية.

✽ من آثار هذا السبب

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾

﴿سورة ق: آية ٣٠﴾ بأنه مجرد تصوير وتمثيل وقد قرر ذلك.

تأويل كثير من مشاهد القيامة وأخبار الغيب بحجة أنها من باب التمثيل أو التصوير البلاغي.

صرف بعض النصوص عن ظاهرها لمجرد أن العقل لم يالفها أو لم يتصور كيفيتها.

❁ فما التفسير الصحيح؟

١. الآية على ظاهرها فالله تعالى يخاطب جهنم يوم القيامة وتجب جهنم جوابًا حقيقياً يليق بها.
٢. ولا يلزم من جهلنا بكيفية ذلك أن ننفي وقوعه.
٣. بل الواجب إثبات ما أثبتته الله لنفسه على الوجه اللائق به دون تكلف ولا تعطيل.

❁ فائدة نفيسة

العجز عن إدراك الكيفية لا يقتضي نفي الحقيقة.

❁ القاعدة الذهبية

الأصل حمل كلام الله على حقيقته، ولا يُعدل إلى المجاز أو التمثيل إلا بدليل.



الفصل السابع

الولوع بالفلسفة والكلام

❁ سبب الخطأ

أن يُحمّل المفسر ألفاظ القرآن ومعانيه مصطلحات فلسفية أو كلامية غريبة عن لغة العرب وفهم السلف، ثم يجعل تلك الفلسفات حاکمة على النصوص.

❁ ما المقصود بالفلسفة والكلام؟

* **الفلسفة هنا:** المناهج والأفكار التي تبحث في الإلهيات والكون والوجود بالعقل المجرد، ثم يُجعل القرآن تابعاً لها.

* **وعلم الكلام:** طريقة تعتمد الجدل العقلي والمقدمات المنطقية في تقرير العقائد، ثم يُلجأ أحياناً إلى تأويل النصوص لتوافق تلك المقدمات.

المشهد السابع: «وأين السواحر من القوة النباتية؟!»

جلس الطالب بين يدي شيخه وفي يده كتاب تفسير وكانت تبدو عليه علامات الحيرة أكثر من علامات الاقتناع.

الطالب: يا شيخ، قرأت تفسيرًا غريبًا جدًا لهذه الآية.

الشيخ: وما هي؟

الطالب: قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

[سورة الفلق: آية ٤].

وجدت من يقول: إن النفاثات ليست السواحر وإنما هي القوة النباتية الموجودة في الإنسان.

ثم أخذ يشرح أن القوة النباتية هي المسؤولة عن النمو والتغذية، وأن العقد هي ارتباط العناصر بعضها ببعض، وأن النفث فيها هو تأثير تلك القوة في زيادة الجسم.

فسكت الشيخ قليلاً... ثم قال: وأين النفث؟ وأين العقد؟ وأين السحر؟ وأين هذا كله من القوة النباتية؟

ابتسم الطالب وقال: هذا الذي حيرني!

الشيخ: يا بني... إذا احتجت إلى كتب الفلاسفة لتفهم سورة الفلق، فاعلم أن هناك خللاً في الطريق.
فضحك الطالب.

الشيخ: دعنا نبدأ من البداية، لمن نزل القرآن؟

الطالب: للعرب.

الشيخ: وهل كان العربي إذا سمع: «**النَّقَشَتِ فِي الْعُقَدِ**» يفهم القوة النباتية؟

الطالب: أبداً.

الشيخ: بل يفهم السواحر اللاتي ينقشن في العقد وهذا هو الذي عرفته العرب وجاءت به آثار السلف.

ثم قال الشيخ: إن بعض الناس أعجب بالفلسفة.

فلما قرأ القرآن صار يفتش عن نظرياته ومصطلحاته في الآيات فأدخل في القرآن ما لم تعرفه العرب، ولا الصحابة، ولا التابعون.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن المشكلة ليست في عمق المعنى... بل في تحميل النص ما لا يدل عليه.

فقال الشيخ: أحسنت فليس كل تفسير غريب عميقاً ولا كل تفسير معقد صحيحاً.

❁ أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. تحميل النصوص القرآنية مصطلحات فلسفية غريبة عنها.
٢. العدول عن المعنى العربي المعروف.
٣. تقديم الفلسفة والكلام على لغة القرآن وفهم السلف.
٤. تفسير القرآن بمقدمات أجنبية عنه.

✿ من آثار هذا السبب

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق: آية ٤] «بالقوة النباتية وأحوال العناصر والطبائع.

تفسير لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [سورة الحاقة: آية ١٧] «

حيث فسر العرش بالفلك التاسع، وفسر الحملة بالأفلاك الثمانية التي تحته.

كثير من التأويلات الفلسفية التي حوّلت نصوص الوحي إلى مصطلحات منطقية وفلكية وطبيعية لا يدل عليها اللفظ.

✿ فما التفسير الصحيح؟

المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق: آية ٤] «

السواحر اللاتي ينفثن في العقد عند مباشرة أعمال السحر وهو المعنى المعروف في لغة العرب، والمنقول عن جماعة من السلف ولا حاجة إلى إدخال المصطلحات الفلسفية المعقدة لفهم الآية.

❁ فائدة نفيسة

كل تفسير لم تعرفه العرب، ولم يعرفه السلف، وافتقر إلى اصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين لفهمه، فهو أبعد عن الصواب.

❁ القاعدة الذهبية

القرآن نزل بلسان عربي مبين، فلا يُفسَّر بمصطلحات الفلاسفة قبل تفسيره بلغة العرب وفهم السلف.

❁ خلاصة الفصل

حين تصبح الفلسفة حاكمة على القرآن... يتحول السحر إلى قوة نباتية، ويتحول العرش إلى فلك، وتضيع دلالات الوحي بين المصطلحات.

أما منهج السلف فكان أوضح وأهدى: يفهمون القرآن كما أنزله الله.



الفصل الثامن

الاستناد إلى مجرد العقل وتفضيله على النقل الصحيح

❁ سبب الخطأ

أن يجعل المفسر عقله حاكمًا على النصوص فما وافق تصوره العقلي قبله وما خالفه أوله أو صرفه أو رده.

❁ ما المقصود بتقديم العقل على النقل؟

ليس المقصود عدم استعمال العقل فالعقل نعمة عظيمة، وبه يفهم الإنسان الوحي.

وإنما المقصود: «أن يُجعل العقل قاضيًا على النصوص».

فإذا دل القرآن أو السنة على معنى ما، قال بعض الناس: «هذا لا يقبله عقلي».

ثم يبدأ في تأويل النص أو رده.

وليست المشكلة في العقل الصريح بل في الظنون والتصورات العقلية التي تُقدّم على النصوص الصحيحة.

المشهد الثامن: «لكن العقل لا يتقبل هذا التفسير!»

جلس الطالب بين يدي شيخه وهو يقرأ في تفسير قول الله تعالى:
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: آية ٥].

ثم رفع رأسه وقال الطالب: يا شيخ، وجدت بعض المعاصرين
يعترضون على تفسير السلف لهذه الآية. ويرون أن حملها على ظاهرها
غير مقبول عقلاً.

الشيخ: وما وجه اعتراضهم؟

الطالب: قالوا: إن تصور محاولة الشياطين استراق السمع إلى أنباء
السماء فيه تهوين لحرمة عالم الغيب، واستهانة بمقام تدبير الله لأمر
خلقه.

وقالوا: كيف يُتصور أن تتسلل الشياطين لتستمع إلى ما يجري في
السماء؟ وكأن هناك مجالس ومشاورات ومحاورات تدور قبل صدور
الأوامر الإلهية!

وقالوا: لا يعقل أن يتساوى الخالق والمخلوق في الاطلاع على
ما يُدبر ويُقضى بل كيف يُتصور أصلاً أن يكون هناك كلام يمكن أن
يُسترق؟

وقالوا أيضاً: إن النجوم خلقت زينة للسماء وهداية للناس فكيف

تكون في الوقت نفسه قذائف للشياطين؟

وكيف يجتمع الأمران في شيء واحد؟

ثم قال بعضهم: إن القرآن كتاب هداية للإنسان فما الفائدة من

الحديث عن أمور تتعلق بالجن والشياطين على هذا النحو الذي لا ندرك حقيقته؟

فسكت الشيخ قليلاً ثم قال: يا بني... تأمل هذه الاعتراضات كلها.

هل مصدرها آية أخرى؟ أو حديث صحيح؟ أو تفسير صحابي؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن من أين جاءت؟

الطالب: من تصورات عقلية.

الشيخ: وهنا موطن الخطأ.

فإن أصحاب هذه الاعتراضات لم يقولوا: «دل الدليل على خلاف ذلك».

وإنما قالوا: «لا نتصور». «لا نعقل». «لا نستسيغ». «لا نفهم».

ثم جعلوا هذا ميزاناً لقبول النص أو رده.

ثم قال الشيخ: أخبرني: من الذي أخبر باستراق الشياطين للسمع؟

الطالب: الله سبحانه.

الشيخ: ومن الذي أخبر أن الشياطين تُرجم بالشهب؟

الطالب: الله سبحانه.

الشيخ: إذن نحن أمام خبر غيبي من الله فهل الواجب أن نصدقه؟ أم

أن نعيد تشكيله حتى يوافق تصوراتنا؟

الطالب: بل نؤمن به كما جاء.

الشيخ: أحسنت ثم من قال إن العقل أحاط بعالم الملائكة والجن

والشياطين حتى يحكم عليه؟

الطالب: لم أفكر في ذلك.

الشيخ: يا بني... العقل قد يدرك إمكان الشيء. أما تفاصيل الغيب

وكيفياته فطريق معرفتها الوحي ولو كان الغيب يدرك بمجرد العقل لما

كان غيباً أصلاً.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن العجز عن تصور الكيفية لا يعني استحالة الحقيقة.

فقال الشيخ: وهذه قاعدة عظيمة فكم من نصوص الغيب رُدت بسبب هذا الوهم.

✿ أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. جعل التصورات العقلية حاکمة على النصوص.
٢. رد الأخبار الغيبية لمجرد استبعادها.
٣. الخلط بين عدم تصور الكيفية واستحالة الحقيقة.
٤. تقديم الظنون العقلية على النقل الصحيح.

✿ من آثار هذا السبب

رد ما دلت عليه آيات الرجم بالشهب واستراق السمع مع ثبوت ذلك في القرآن والسنة.

كثير من التأويلات التي بُنيت على قول أصحابها: «العقل لا يقبل هذا».

رد بعض أخبار الغيب المتعلقة بالملائكة والجن وأشراط الساعة بحجة مخالفتها للتصور العقلي.

❁ فما التفسير الصحيح؟

المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [سورة الملك: آية ٥]

أن الله جعل النجوم زينة للسماء وجعل منها ما يُرجم به الشياطين الذين يحاولون استراق السمع.

وقد دل على ذلك القرآن في مواضع متعددة، وجاءت به الأحاديث الصحيحة.

والواجب إثبات ما أثبتته الله ورسوله، دون رد النصوص أو تأويلها لمجرد الاستبعاد العقلي.

❁ فائدة نفيسة

العجز عن إدراك الكيفية لا يقتضي نفي الحقيقة.

❁ القاعدة الذهبية

العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.

فإذا ظُنَّ التعارض فالخلل في الفهم أو في الاستدلال، لا في الوحي.

❁ خلاصة الفصل

لم يضل أقوام حين استعملوا عقولهم وإنما ضلوا حين جعلوا عقولهم حاكمة على الوحي.

فصاروا لا يقبلون من النصوص إلا ما وافق تصوراتهم.

أما أهل السنة فيجعلون العقل شاهداً للوحي، لا قاضياً عليه.

وكما قال شيخ الإسلام: «هؤلاء لا يقبلون الاستدلال بالكتاب

والسنة إلا على وفق عقولهم، فإذا ظنوا أن العقل عارض السمع قدموا

ما ظنوه عقلاً على ما علموه من الوحي».



الفصل التاسع

الأخذ عن المبتدعة وأصحاب الأهواء

❁ سبب الخطأ

تلقي التفسير عن أهل البدع والأهواء فيما انفردوا به من الأقوال المخالفة للأدلة، أو تقديم أقوالهم على ما ثبت في الكتاب والسنة.

❁ ما المقصود بأهل الأهواء؟

هم الذين تبنا أصولاً عقدية أو فكرية مخالفة لما كان عليه السلف ثم صاروا يفسرون النصوص وفق تلك الأصول. وليس الخطأ في مجرد الاستفادة منهم أو نقل أقوالهم. وإنما الخطأ في قبول ما انفردوا به من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة.

المشهد التاسع: «لكن الآية تقول: لا ترونهم!»

جلس الطالب بين يدي شيخه وهو يقرأ في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ دَرَبَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٧].

ثم قال الطالب: يا شيخ، وجدت بعض المفسرين يقولون: إن هذه الآية دليل على أن الجن لا يمكن رؤيتهم أبداً.

ولا يمكن أن يظهروا للإنس ومن زعم رؤيتهم فهو واهم أو مخدوع.

الشيخ: ومن قال ذلك؟

الطالب: الزمخشري ذكر ذلك وقال: «إن الآية تدل على أن الجن لا يُرون، وأن إظهار أنفسهم للإنس ليس في استطاعتهم».

فسكت الشيخ قليلاً ثم قال: دعنا نقرأ الآية أولاً هل قالت الآية: «لا يمكن أن يُروا أبداً؟»

الطالب: لا

الشيخ: وهل قالت: «يستحيل أن يراهم أحد؟»

الطالب: لا

الشيخ: بل قالت: «مِنْ حَيْثُ لَا نَرُوهُمْ».

أي أن الأصل فيهم أنهم يروننا ونحن لا نراهم.

ثم قال الشيخ: لكن عندي سؤال آخر هل ورد في السنة ما يبين هذه المسألة؟

الطالب: نعم

الشيخ: وماذا ورد؟

الطالب: ثبت عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه جميعاً، فذكرت دعوة أخي سليمان». **الشيخ:** أحسنت.

فلو كان ظهور الجن أو إمكان رؤيتهم مستحيلاً مطلقاً، فكيف نفهم هذا الحديث؟
سكت الطالب قليلاً.

الشيخ: يا بني... المشكلة ليست في الآية بل في تفسيرها على وفق أصل سابق ثم تحميلها ما لا تدل عليه.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الآية تثبت أن الأصل في الجن أنهم لا يُرون لكنها لا تنفي إمكان رؤيتهم إذا شاء الله.

فقال الشيخ: أحسنت وهكذا تُجمع النصوص أما أن يؤخذ ببعضها ويُترك بعضها، فليس هذا من منهج أهل العلم.

✽ أين وقع الخطأ؟

وقع الخطأ في:

١. تفسير الآية وفق أصل عقدي سابق.
٢. إهمال النصوص الأخرى الواردة في الباب.
٣. تحميل الآية ما لا تدل عليه.
٤. الأخذ بقول أهل الأهواء فيما خالفوا فيه النصوص.

✽ من آثار هذا السبب

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يُرِيدُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ «بأن رؤية الجن مستحيلة مطلقاً.

كثير من الأقوال التي نشأت عن أصول اعتزالية أو كلامية ثم أُسقطت على النصوص.

تقديم بعض القواعد المذهبية على الأحاديث الصحيحة.

✽ فما التفسير الصحيح؟

الآية تدل على أن الأصل في الجن أنهم يرون الإنس من حيث لا يراهم الإنس.

لكنها لا تدل على استحالة رؤيتهم مطلقاً.

وقد دلت النصوص الصحيحة على إمكان ظهورهم إذا شاء الله،
كما في حديث العفريت الذي تفلت على النبي ﷺ.
فالجمع بين الأدلة أولى من إلغاء بعضها ببعض.

❁ فائدة نفيسة

إذا ورد نص مجمل في باب، ووردت نصوص أخرى تبينه، وجب
حملة عليها وجمع الأدلة كلها.

❁ القاعدة الذهبية

لا يُقبل من أهل الأهواء ما خالف صريح الكتاب والسنة.

❁ زبدة الفصل

ليس الخطر في البدعة وحدها بل في أثرها على فهم النصوص فإن
المفسر إذا دخل إلى القرآن وفي ذهنه أصل يريد إثباته، أو شك أن يجعل
الآيات تابعة لذلك الأصل.

أما أهل السنة فيجعلون أصولهم تابعة للوحي، لا أن يجعلوا الوحي
تابعاً لأصولهم.



الباب الثاني

أخطاء الفهم والاستدلال في تفسير القرآن

بعد أن تعرفنا في الباب الأول على أهم مصادر الخطأ في التفسير،
نتنقل في هذا الباب إلى مرحلة أخرى لا تقل أهمية عنها.
فقد يكون المفسر معتمداً على القرآن والسنة وأقوال السلف، ومع
ذلك يقع في الخطأ بسبب خلل في الفهم أو الاستدلال أو الجمع بين
النصوص.

ومن هنا جاءت أهمية هذا الباب؛ إذ يعالج صوراً من الخطأ نشأت
بسبب عدم الدقة في فهم دلالات الآيات ومدلولاتها.



الفصل الأول

عدم الإحاطة بالناسخ والمنسوخ

✿ المهارة التي سنتعلمها

كيف نميز بين النسخ الحقيقي وبين ما يشته به من التخصيص والبيان والتقيد، حتى لا ندعي النسخ فيما ليس بمنسوخ؟

✿ ما المقصود بالنسخ؟

النسخ هو: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه. ومعرفة الناسخ والمنسوخ من العلوم المهمة في التفسير؛ لأن الجهل به قد يؤدي إلى العمل بالمنسوخ، أو إلى ادعاء نسخ ما لم ينسخ.

المشهد الأول: هل كل تخصيص نسخ؟

جلس طالبان في مجلس شيخ يدرسون آيات الإنفاق في القرآن.

فقال أحدهما بحماس:

الطالب الأول: يا شيخ، ظهر لي أن كثيرًا من آيات الإنفاق في القرآن قد نسختها آية الزكاة.

الشيخ: وكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟

الطالب الأول: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ [سورة

البقرة: آية ٣]؟

وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْإِنْفِقُونَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

[سورة البقرة: آية ٢١٥]؟

وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أَعَفَوْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢١٩]؟

وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥٤]؟

وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآيات كانت قبل فرض الزكاة، فلما فرضت الزكاة نسختها.

فقال **الطالب الثاني:** إذن بعد نزول الزكاة لا يبقى للإنفاق المذكور

في هذه الآيات حكم؟

الطالب الأول: هكذا فهمت.

فسكت الشيخ قليلاً ثم قال: قبل أن نحكم بالنسخ، دعونا نسأل

سؤالاً مهماً: هل يوجد تعارض بين هذه الآيات وبين آية الزكاة؟

الطالب الأول: كيف ذلك؟

الشيخ: هل قالت آية الزكاة: «لا يجوز لكم بعد اليوم أن تنفقوا إلا

الزكاة»؟

الطالب: لا.

الشيخ: وهل قالت آيات الإنفاق: «لا زكاة مفروضة عليكم»؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن أين التعارض الذي يوجب النسخ؟

فسكت الطالبان.

ثم قال الشيخ: يا أبنائي... الزكاة حق واجب محدد المقدار والمصرف أما الإنفاق والصدقة وصلة الرحم والإحسان إلى الوالدين وسائر وجوه البر، فهذه أبواب أخرى من الخير لم تلغها الزكاة بل المسلم مأمور بالزكاة ومأمور بالإحسان فوق ذلك.

الطالب الثاني: إذن يمكن أن تكون جميع الآيات محكمة؟

الشيخ: بل هذا هو الذي رجحه جماعة من المحققين فلا منافاة بين آيات الإنفاق وآيات الزكاة. والأصل بقاء النصوص كلها على العمل بها.

الطالب الأول: إذن أين وقع الخطأ؟

الشيخ: وقع الخطأ في التوسع في دعوى النسخ.

فبعض الناس رأى أن الزكاة خصصت نوعاً من الإنفاق الواجب، فظن أن هذا نسخ لما سواه.

مع أن التخصيص ليس نسخاً.
والجمع بين النصوص أولى من ادعاء إلغاء بعضها.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: الآن فهمت ليس كل نص جاء بعد نص يكون ناسخاً
له وليس كل تخصيص أو تفصيل يعد نسخاً.

فقال الشيخ: وهذه من أهم القواعد في باب النسخ والمنسوخ.
فإن كثيراً من دعاوى النسخ نشأت من عدم التمييز بين النسخ
والتخصيص.

❁ ما التفسير الصحيح؟

آيات الإنفاق باقية محكمة وآيات الزكاة باقية محكمة فالزكاة فريضة
واجبة وأما سائر أبواب الإنفاق والصدقة والإحسان وصلة الرحم
فمشروعة باقية لم تنسخ ولا تعارض بين النصوص حتى يقال بالنسخ.

❁ فائدة نفيسة

إذا أمكن الجمع بين النصوص فلا يُصار إلى النسخ.

❁ القاعدة الذهبية

ليس كل تخصيص نسخاً.

❁ خلاصة المشهد

من أكثر أسباب الخطأ في باب النسخ: أن يرى المفسر نصين مختلفين فيظن أن أحدهما ألغى الآخر بينما الشريعة كثيرًا ما تجمع بين النصوص، ويكون بعضها مفسرًا أو مخصصًا لبعض، لا ناسخًا له.

المشهد الثاني: هل كل بيان نسخ؟

كان الشيخ يشرح لطلابه آيات التقوى فرفع أحد الطلاب يده وقال:

الطالب: يا شيخ، أليس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٢] «

منسوخًا بقوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؟ [سورة التغابن: آية ١٦] «

الشيخ: ولماذا قلت إنه منسوخ؟

الطالب: لأن الآية الأولى تطلب تقوى الله حق تقاته وهذا أمر عظيم لا يطيقه أحد ثم جاءت الآية الثانية فخففت ذلك فقالت: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: آية ١٦] «.

فكان الثانية نسخت الأولى.

فقال طالب آخر: وأنا سمعت هذا القول أيضًا فإن حق التقوى يبدو أمرًا فوق الطاقة.

ابتسم الشيخ وقال: دعونا نتأمل قليلاً هل يمكن أن يأمر الله عباده

بما لا يطيقون؟

الطالب: لا.

الشيخ: أليس الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة

البقرة: آية ٢٨٦]؟

الطالب: بلى.

الشيخ: إذن كيف تفهمون: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران:

آية ١٠٢]؟

هل معناها: كلّفوا بما لا تطيقون؟

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: لقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية فقال: «لم

تنسخ».

ثم بيّن معنى حق تقاته فقال: «أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا

تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط لله ولو على أنفسهم».

الطالب: إذن ابن عباس لا يرى النسخ أصلاً؟

الشيخ: نعم بل يرى أن الآية الثانية تفسر الأولى.

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: لأن معنى: «﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾» أي: حققوا التقوى تحقيقاً صادقاً كاملاً لكن ذلك كله داخل في حدود الاستطاعة التي خلق الله العباد عليها.

ثم جاءت الآية الأخرى فقالت: «﴿فَآتَوْا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾» [التغابن: آية ١٦]

فبينت أن هذا الواجب العظيم إنما يكون بحسب القدرة والطاقة.

ثم قال الشيخ: فالآية الثانية لم ترفع حكم الأولى وإنما شرحتها وبينت المراد منها.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن المشكلة أنهم فهموا من قوله: «﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾» أنه تكليف بما لا يطاق.

فلما جاء قوله: «﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾» ظنوا أنه نسخ له.

فقال الشيخ: أحسنت ولو فهموا الآية الأولى على وجهها لما احتاجوا إلى دعوى النسخ.

ثم أضاف الشيخ: ولهذا قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر قول ابن عباس: «وهذا هو الصحيح».

لأن الله لم يأمر بشيء خارج عن الوسع والطاقة فالآيتان متوافقتان لا متعارضتان.

وكأن المعنى: «اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم».

❁ ما التفسير الصحيح؟

قوله تعالى: «﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾» آية محكمة غير منسوخة.

والمراد بها تحقيق التقوى على وجهها الصحيح.

وقوله تعالى: «﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾» بيان وتفسير لكيفية امتثال الأمر الأول.

فالآيتان متفقتان متكاملتان.

❁ فائدة نفيسة

إذا أمكن حمل الآية الثانية على أنها بيان للأولى، لم يجز المصير إلى النسخ.

❁ القاعدة الذهبية

ليس كل بيان أو تفسير لحكم سابق يعد نسخاً له.

❁ خلاصة المشهد

من أكثر أسباب التوسع في دعوى النسخ: سوء فهم النص الأول.
فإذا فهم النص على غير مراده، ظُنَّ أن النص الثاني أبطله.
والحقيقة أن النص الثاني قد يكون مجرد شارح ومبين له

المشهد الثالث: هل زوال السبب يعني النسخ؟

كان الشيخ يشرح لطلابه آيات التعامل مع المخالفين.

فقال أحد الطلاب:

الطالب: يا شيخ، أرى أن آيات العفو والصفح والصبر على أذى الكفار كلها منسوخة بآية السيف.

الشيخ: مثل أي الآيات؟

الطالب: مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ ❁

[سورة البقرة: آية ١٠٩]

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ❁ (١٨٦)

[سورة آل عمران: آية ١٨٦]

وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ❁ [سورة الأنفال: آية ٦١]

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [سورة الزخرف: آية ٨٩]

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [سورة ق: آية ٣٩]

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة الطور: آية ٤٨].

فقد قال بعض العلماء إنها كلها نسخت بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [سورة التوبة: آية ٥].

فقال طالب آخر: وهذا ظاهر يا شيخ.

ففي البداية أمر المسلمون بالعفو والصبر ثم لما قوّوا أمروا بالقتال.

ابتسم الشيخ وقال: دعوني أسألكما سؤالاً.

لو أن المسلمين في بلد من البلدان كانوا مستضعفين لا يملكون
قدرة على القتال

فهل يُطالبون بما لا يستطيعون؟

الطالب: لا.

الشيخ: ولو كانوا أقوىاء قادرين على دفع المعتدي فهل يبقون
مأمورين بالاستسلام وترك الدفاع؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن ألا تلاحظان أن الأحكام هنا مرتبطة بأحوال مختلفة؟

فسكت الطالبان.

ثم قال الشيخ: المشكلة أن بعض الناس ظن أن تغير الحال يعني نسخ الحكم مع أن الحكم الأول لم يلغ وإنما كان متعلقاً بسبب أو حالة معينة فإذا عادت تلك الحالة عاد حكمها.

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: تأمل قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾. فهل أمر الله بالعفو مطلقاً؟

الطالب: لا. بل قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

الشيخ: أحسنت. ولهذا نبه ابن الجوزي إلى أن الآية نفسها تدل على أن الأمر مؤقت بحال معينة فهي ليست منسوخة بل من أول الأمر مقيدة بغاية.

ثم قال الشيخ: وكذلك آيات الصبر والعفو والإعراض هي أحكام شرعية باقية لكنها تُعمل في مواضعها كما أن آيات القتال باقية وتُعمل في مواضعها.

الطالب الثاني: إذن ليست القضية أن حكماً ألغى حكماً بل أن لكل حكم ظرفه وسببه المناسب.

الشيخ: وهذا هو الفهم الصحيح فالفقه في النصوص ليس أن تبحث عن الإلغاء دائماً بل أن تعرف متى يعمل بكل نص.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: الآن فهمت زوال السبب لا يعني نسخ الحكم بل يعني انتهاء العمل به في تلك الحال فإذا عاد السبب عاد الحكم.

فقال الشيخ: وهذه من أدق المسائل في باب الناسخ والمنسوخ.

❁ ما التفسير الصحيح؟

آيات العفو والصفح والصبر والإعراض محكمة غير منسوخة
وآيات القتال والجهاد محكمة غير منسوخة.

وكل طائفة من الآيات تعمل في حالها ومناسبتها.

فحال الضعف والاستضعاف له أحكامه وحال القوة والقدرة له
أحكامه.

ولا تعارض بين النصوص حتى يقال بالنسخ.

❁ فائدة نفيسة

الحكم المعلق بسبب أو حال لا يكون منسوخاً بزوال ذلك السبب
أو الحال.

القاعدة الذهبية

ليس كل حكم انتهى العمل به في ظرف معين يعد منسوخًا.

خلاصة المشهد

من أسباب التوسع في دعوى النسخ:

الخلط بين نسخ الحكم، وبين تغير الأحوال التي يعمل فيها بالحكم.
فكم من آية ظُن أنها منسوخة، وهي في الحقيقة باقية، لكن العمل بها مرتبط بوجود سببها ومحلها.

المشهد الرابع: هل كل زيادة على النص نسخ؟

كان الشيخ يراجع مع طلابه مسائل الطهارة.

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، أليس الوضوء من لحم الإبل حكمًا زادته السنة على القرآن؟

الشيخ: نعم.

الطالب: إذن أليست هذه الزيادة نسخًا للقرآن؟

فإن الله تعالى قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾

[سورة المائدة: آية ٦]

وذكر أسباب الطهارة ولم يذكر لحم الإبل ثم جاءت السنة فأوجبوا الوضوء منه.

فقال طالب آخر: وأنا سمعت من يقول: كل حكم زائد على النص فهو ناسخ له.

فابتسم الشيخ وقال: دعونا نتأني قليلاً.

عندما جاءت السنة بالوضوء من لحم الإبل... هل أبطلت شيئاً من أحكام الآية؟

الطالب: لا.

الشيخ: وهل رفعت حكماً ثابتاً فيها؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن أين النسخ؟

فالنسخ رفع حكم سابق أما هنا فلم يُرفع شيء.

فسكت الطالبان.

ثم قال الشيخ: تأملا: لو قال أب لابنه: «أكرم الضيوف». ثم قال بعد ذلك: «وأكرم العلماء خاصة». فهل ألغى الأمر الأول؟

الطالب: لا بل زاد توضيحاً واهتماماً.

الشيخ: أحسنت وكذلك الشريعة فقد يأتي القرآن بحكم عام.

ثم تأتي السنة: - مبينة له - أو مخصصة له - أو مقيدة له - أو مضيضة
حكمًا سكت عنه النص.

ولا يكون شيء من ذلك نسخًا.

الطالب: إذن الوضوء من لحم الإبل ليس نسخًا؟

الشيخ: بل هو حكم شرعي مستقل ثبت بالسنة الصحيحة ولم
يعارض آية من كتاب الله ولم يرفع حكمًا قرآنيًا. فكيف يسمى نسخًا؟

ثم قال الشيخ: ولهذا وقع الخطأ عند بعض الناس حين ظنوا أن كل
زيادة على النص نسخ.

مع أن أكثر هذه الزيادات من باب البيان أو التخصيص أو التقييد.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: الآن فهمت النسخ لا يكون بمجرد وجود حكم جديد
بل لا بد أن يرفع الحكم السابق أو يعارضه.

فقال الشيخ: أحسنت. وهذه من القواعد المهمة في فهم العلاقة بين
القرآن والسنة.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الأحكام التي جاءت بها السنة ولم يرد في القرآن ما يعارضها ليست من باب النسخ.

فمن ذلك: الوضوء من لحم الإبل فهو حكم ثبت بالسنة الصحيحة. ولم يرفع حكمًا قرآنيًا، ولم يعارض آية من كتاب الله ولذلك لا يوصف بأنه نسخ.

❁ فائدة نفيسة

الزيادة على النص ليست نسخًا إلا إذا تضمنت رفع الحكم السابق أو إبطاله.

❁ القاعدة الذهبية

ليس كل حكم جديد نسخًا، بل قد يكون بيانًا أو تخصيصًا أو تقييدًا أو تشريعًا مستقلًا.

❁ خلاصة المشهد

من أسباب التوسع في دعوى النسخ: الخلط بين رفع الحكم وبين استكمال بيانه.

فكم من حكم جاءت به السنة فظنه بعض الناس نسخًا. والحقيقة أنه لم يلغ حكمًا سابقًا، وإنما بين الشريعة وأكمل أحكامها.

المبحث الثاني

إحكام ما ثبت نسخه

المهارة التي سنتعلمها

كما أن التوسع في دعوى النسخ خطأ، فإن إنكار النسخ الثابت أو إحياء حكم منسوخ بدليل صحيح خطأ آخر لا يقل عنه.

المشهد الخامس: هل بقي التخيير بين الصيام والإطعام؟

كان الشيخ يشرح أحكام الصيام في سورة البقرة.

فقال أحد الطلاب:

الطالب: يا شيخ، يظهر لي أن من شاء صام، ومن شاء أطعم.

فالله تعالى يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾

[سورة البقرة: آية ١٨٤]. فلماذا نلزم الناس بالصيام؟

فنظر إليه طالب آخر وقال: لكن أليس جمهور المفسرين يرون أن

هذه الآية منسوخة؟

الطالب الأول: كيف تكون منسوخة؟ والآية موجودة في المصحف

نتلوها إلى اليوم!

ابتسم الشيخ وقال: وهنا يقع كثير من الناس في الخلط. فبقاء الآية في القرآن لا يعني بقاء حكمها.

فالنسخ قد يقع على الحكم مع بقاء التلاوة.

الطالب: وما الدليل على النسخ هنا؟

الشيخ: لقد ثبت في صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي فعل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها».

وثبت عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «هي منسوخة». فسكت الطالب قليلاً.

ثم قال: الطالب: إذن كان المسلم في أول الأمر مخيراً بين الصيام والإطعام؟

الشيخ: نعم. ثم لما استقر التشريع أوجب الله الصيام على القادر المقيم الصحيح.

فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: آية ١٨٥].

الطالب: لكن ماذا نضنع بقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟

فقد كان يرى أن الآية محكمة.

الشيخ: أحسنت السؤال. فابن عباس لم يُبق الآية على عمومها الأول. وإنما حملها على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة اللذين لا يستطيعان الصيام.

فصار كلامه تخصيصًا لحالة معينة.

أما التخيير العام بين الصيام والإطعام للقادرين فلم يقل بقاءه.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخلاف ليس في بقاء التخيير العام وإنما في بقاء حكم خاص لبعض العاجزين.

فقال الشيخ: أحسنت.

ولهذا أخطأ من تمسك بظاهر الآية وأبقى حكمها الأول مع وجود الأدلة الصحيحة الدالة على نسخه.

❁ ما التفسير الصحيح؟

كان المسلمون في أول فرض الصيام مخيرين بين الصيام والإطعام ثم نسخ هذا التخيير بقوله تعالى: «﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾».

فصار الصيام واجبًا على القادر وبقي الإطعام في حق من عجز عجزًا دائمًا كالشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ونحوهما.

فائدة نفيسة

ثبوت النسخ بدليل صحيح يوجب المصير إليه، ولا يجوز التمسك بالحكم الأول بعد قيام الدليل على رفعه.

القاعدة الذهبية

كما أن التوسع في دعوى النسخ خطأ، فإن إنكار النسخ الثابت خطأ أيضاً.

خلاصة المشهد

بعض الناس يرى النسخ في كل موضع وبعضهم ينكره في كل موضع. والمنهج الصحيح هو اتباع الدليل. فما ثبت نسخه قبلناه وما لم يثبت نسخه أبقيناه على أصله. وبذلك يسلم المفسر من طرفي الإفراط والتفريط.



الفصل الثاني

الخلل في منهج الاستدلال بالآيات والإخلال بالأصول المأمو ربها

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نتعامل مع نصوص الصفات الواردة في القرآن؟
ومتى يكون التأويل صحيحًا؟ ومتى يكون عدولاً عن ظاهر النص
بلا دليل؟

المشهد الأول: هل اليد تعني القدرة؟

كان الشيخ يقرأ مع طلابه قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَبْلِغُ مَا مَنَّكَ أَنْ
تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [سورة ص: آية ٧٥].

فقال أحد الطلاب:

الطالب: يا شيخ، قرأت لبعض المفسرين أن المقصود باليد هنا
القدرة.

الشيخ: وماذا حملهم على ذلك؟

الطالب: قالوا: إن إثبات اليد على ظاهرها لا يصح ففسروها بالقدرة
أو النعمة أو القوة أو الملك.

فقال طالب آخر: وقد رأيت مثل هذا أيضًا في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [سورة المائدة: آية ٦٤].

وقوله: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة يس: آية ٨٣].
فسكت الشيخ قليلاً.

ثم قال: الشيخ: دعونا نتأمل الآية نفسها.

لماذا قال الله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ ولم يقل: «خلقت بقدرتي»؟
فسكت الطلاب.

الشيخ: أليس جميع الخلق مخلوقين بقدره الله؟
الطالب: بلى.

الشيخ: فإذا كان معنى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾

أي: خلقت بقدرتي فما الخصوصية التي اختص بها آدم؟
توقف الطالب طويلاً.

الشيخ: ولهذا نبه العلماء إلى أن هذه الآية من أقوى الأدلة على بطلان هذا التأويل.

لأن القدرة عامة في جميع المخلوقات.

أما الآية فقد جاءت في مقام الامتنان على آدم والتشريف له.

الطالب: إذن لو فسرنا اليد بالقدرة ضاعت خصوصية الآية؟

الشيخ: نعم. وهذا ما نبه إليه جماعة من أهل العلم.

ثم قال الشيخ: يا أبنائي... الأصل في نصوص القرآن أن تحمل على ظاهرها.

ولا يجوز العدول عن الظاهر إلى معنى آخر إلا بدليل صحيح.

أما مجرد الاستبعاد العقلي أو الاعتياد على التأويل فليس دليلاً.

الطالب: فما منهج السلف إذن؟

الشيخ: منهجهم إثبات ما أثبتته الله لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل.

فيثبتون صفة اليمين لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله دون تشبيهه بخلقه ودون خوض في الكيفية.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ لم يكن في إثبات الصفة وإنما في العدول

عن ظاهر النص إلى معنى آخر بلا دليل.

فقال الشيخ: وهذا من أشهر أسباب الخطأ في تفسير آيات الصفات.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الآيات الواردة في إثبات اليمين لله تعالى تحمل على ظاهرها اللائق بالله سبحانه.

فيثبت لله ما أثبتته لنفسه من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف.
ولا تُصرف إلى معاني القدرة أو النعمة أو القوة إلا بدليل صحيح.

❁ فائدة نفيسة

الأصل في الكلام الحقيقة، ولا يُعدل عنها إلى المجاز أو التأويل إلا بدليل.

❁ القاعدة الذهبية

لا يجوز صرف نصوص الصفات عن ظاهرها لمجرد الاستبعاد أو الاحتمال.

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الخطأ في تفسير آيات الصفات:
أن يدخل المفسر إلى النص وفي ذهنه معنى مسبق يريد إثباته فيجعل النص تابعاً لذلك المعنى.

أما المنهج الصحيح فهو أن ننطلق من النص نفسه، ونفهمه كما فهمه السلف، مع إثبات ما أثبتته الله لنفسه على الوجه اللائق به.

المشهد الثاني: حين يصبح التأويل وسيلة لهدم النص

جلس الطلاب حول شيخهم في درس التفسير.

فقال الشيخ: يا أبنائي... أتعلمون ما أخطر أنواع التأويل؟

أحد الطلاب: التأويل الخاطيء؟

الشيخ: بل أخطر منه أن يتحول التأويل إلى وسيلة لحماية المذهب لا لفهم القرآن.

ثم قال الشيخ: لقد ذكر الإمام الدارمي قصة عجيبة.

فقد قيل للمريسي: إن أهل السنة يحتجون علينا بأحاديث صحيحة ثابتة، وأسانيد قوية لا نستطيع ردها فكيف نصنع؟

فماذا تتوقعون أنه قال؟

الطالب: ربما قال: إذا صحت نأخذ بها.

ابتسم الشيخ وقال: بل قال: «لا تردوها فتفضحوا ولكن غالطوهم بالتأويل فتكونوا قد رددتموها بلطف إن لم يمكنكم ردها بعنف».

فسكت الطلاب.

الطالب: إذن المقصود لم يعد فهم النص بل التخلص من دلالاته.

الشيخ: أحسنت وهنا تبدأ الكارثة فبدل أن يكون الإنسان تابعاً للدليل... يجعل الدليل تابعاً لمذهبه.

ثم قال الشيخ: دعونا نرى مثلاً عملياً ماذا تفهمون من قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٦]؟

الطالب: دين الله وهداه وطريق الحق.

الشيخ: هذا الذي فهمه الصحابة والسلف لكن بعض المفسرين من الرافضة قالوا: «الصراط المستقيم هو علي بن أبي طالب».

فنظر الطلاب إلى بعضهم متعجبين

الشيخ: بل فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: آية ٢]

بأن المراد: علي بن أبي طالب وفسر: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بأنهم شيعة علي.

وفسر: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة: آية ٣] بأنهم الذين يؤمنون بقيام القائم.

الطالب: لكن أين دلالة الألفاظ على هذه المعاني؟

الشيخ: هذا هو السؤال الصحيح.

ثم قال الشيخ: لو قرأت الآية مجردة عن المذهب... هل ستفهم منها هذه المعاني؟

الطالب: أبداً.

الشيخ: إذن من أين جاءت؟

الطالب: جاءت من المذهب أولاً ثم أسقطت على الآية.

الشيخ: وهنا يظهر معنى التأويل الفاسد.

فالتأويل الصحيح ينطلق من النص أما التأويل الفاسد فينطلق من الفكرة المسبقة.

ثم يُجبر النص على موافقتها.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الفرق بين التفسير الصحيح والتأويل الفاسد: أن الأول يجعل المذهب تابعاً للنص والثاني يجعل النص تابعاً للمذهب.

فقال الشيخ: وهذه من أعظم قواعد التفسير.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الأصل أن تفسر الآيات وفق دلالاتها العربية وسياقها وما ورد عن السلف في بيانها.

أما تحميل النصوص معاني مذهبية لا يدل عليها اللفظ ولا السياق ولا آثار السلف، فهو من التأويل الفاسد.

❁ فائدة نفيسة

كل معنى أُدخل على النص من خارج دلالاته وسياقه دون دليل فهو من التكلف في التفسير.

❁ القاعدة الذهبية

المذهب يُعرض على القرآن، لا أن يُجعل القرآن تابعاً للمذهب.

❁ خلاصة المشهد

التأويل الفاسد لا يبدأ من النص بل يبدأ من نتيجة يريد صاحبها الوصول إليها ثم يبحث بعد ذلك عن آية يحملها عليها ولهذا كان السلف يسألون دائماً:

هل هذا معنى دل عليه القرآن؟ أم معنى أُدخل على القرآن؟

المشهد الثالث: هل يكفي أن آخذ آية واحدة؟

كان الشيخ يقرأ مع طلابه قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: آية ١١].

ثم سألهم: ما الذي تستفيدونه من هذه الآية؟

أحد الطلاب: أن الله منزّه عن مشابهة خلقه.

الشيخ: أحسنت ثم ماذا أيضًا؟

فسكت الطلاب.

فقال أحدهم: يا شيخ، لقد رأيت بعض الناس يستدلون بهذه الآية على نفي الصفات.

فيقولون: لو أثبتنا الصفات لوقع التشبيه والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

فقال الشيخ: وهل انتهت الآية عند هذا الموضع؟

الطالب: لا.

الشيخ: فما بقيتها؟

الطالب: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: آية ١١].

فابتسم الشيخ وقال: وهنا وقع الخطأ فقد أخذوا أول الآية وتركوا آخرها.

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: أول الآية: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» تنفي التشبيه وآخرها: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [سورة الشورى: آية ١١]

يثبت الصفات.

الطالب: إذن الآية نفسها جمعت بين الأمرين؟

الشيخ: نعم. جمعت بين: التنزيه والإثبات.

ثم قال الشيخ: ولهذا كان السلف يقولون: لا تضرب القرآن بعضه ببعض.

ولا نأخذ بعض النصوص ونترك بعضها بل نجعلها كلها ثم رسم الشيخ على اللوح خطين.

وقال: الشيخ: طريق أهل السنة: يجمعون النصوص وطريق أهل الأهواء: يتمسكون بما وافق مذهبهم ثم يؤولون أو يتركون ما خالفه.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن المشكلة ليست في الآية بل في الاختصار على جزء من الأدلة.

فقال الشيخ: أحسنت ولهذا سمي الله هذه النصوص: «محكمًا ومتشابهًا». وأمر برد المتشابه إلى المحكم لا أن يُجعل المتشابه أصلًا تُرد إليه النصوص المحكمة.

ثم قال الشيخ: ولهذا وقع الجبرية في الخطأ حين تمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: آية ٣٠]

وأعرضوا عن النصوص الكثيرة التي تثبت للعبد مشيئة واختيارًا. ووقع الخوارج والمعتزلة في الخطأ حين تمسكوا بقوله تعالى: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [سورة المدثر: آية ٤٨] وأعرضوا عن النصوص المحكمة الكثيرة الدالة على ثبوت الشفاعة لأهل التوحيد.

الطالب: إذن أصل المشكلة واحد؟

الشيخ: نعم. ترك الجمع بين النصوص واتباع المتشابه وإهمال المحكم.

ما التفسير الصحيح؟

الواجب جمع النصوص كلها في الباب الواحد فأيات الصفات تُفهم في ضوء جميع النصوص الواردة فيها وآيات القدر تُجمع مع آيات التكليف وآيات الوعيد تُجمع مع آيات الوعد والشفاعة فبهذا يزول التعارض المتوهم.

❁ فائدة نفيسة

لا يُفهم القرآن ببعضه دون بعض.

❁ القاعدة الذهبية

المتشابه يُرد إلى المحكم، لا أن يُترك المحكم لأجل المتشابه.

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الانحراف في التفسير: أن يأخذ الإنسان آية توافق رأيه ثم يبنى عليها مذهبه كله.

أما أهل العلم فيجمعون النصوص كلها فلا يبنون اعتقاداً على آية واحدة، ولا يتركون عشرات النصوص لأجل دليل محتمل.

ولهذا كان جمع النصوص قبل الترجيح من أعظم أصول التفسير

المشهد الرابع: هل كل من انتسب إلى دين سماوي ناجٍ؟

جلس الطلاب في حلقة التفسير.

فقال أحدهم:

الطالب: يا شيخ، أليس الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّارِئَ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٦٢]؟

إذن لماذا يقول بعض الناس إن اليهود والنصارى بعد بعثة النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسوا على الحق؟

فنظر الشيخ إلى الطلاب وقال: قبل أن نجيب... هل يكفي أن نقرأ
آية واحدة في الموضوع؟

الطالب: لا. بل ينبغي جمع النصوص.

الشيخ: أحسنت. فماذا يقول الله أيضاً؟

الطالب: يقول: «﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾» [آل عمران: آية ١٩].

طالب آخر: ويقول: «﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾»
[سورة آل عمران: آية ٨٥].

الشيخ: وماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الطالب: قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني
ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».
فسكت الشيخ قليلاً.

ثم قال: الشيخ: الآن أخبروني. هل يمكن أن نفهم الآية الأولى
بمعزل عن هذه النصوص المحكمة؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن ما معنى الآية؟

فسكت الطلاب.

فقال الشيخ: المقصود بها من كان مؤمناً بنبيه في زمنه قبل بعثة محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فاليهودي الذي آمن بموسى حق الإيمان قبل بعثة عيسى مؤمن.

والنصراني الذي آمن بعيسى حق الإيمان قبل بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مؤمن.

أما بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد صار الواجب على الجميع اتباعه

والإيمان به.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الآية لا تدل على صحة جميع الأديان بعد بعثة

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال الشيخ: بل هذا الفهم يصادم عشرات النصوص المحكمة

ولهذا كان من الخطأ أن تُتزع آية من موضعها ثم تُجعل حاكمة على

سائر القرآن.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الآية تتحدث عن أتباع الأنبياء الذين آمنوا بأنبيائهم قبل بعثة النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد بعثته فقد صار الإيمان به شرطاً لقبول الإيمان.
ولذلك يجب تفسير الآية في ضوء النصوص المحكمة الأخرى.

❁ فائدة نفيسة

لا يجوز الاستدلال بآية على معنى يعارض النصوص المحكمة
الصريحة.

❁ القاعدة الذهبية

الدليل يُفهم في موضعه، ولا يُقتطع من مجموع النصوص.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر صور تحريف الأدلة:
أن يؤخذ نص صحيح ثم يُجعل دليلاً على معنى لم يُرد له.
فليس كل خطأ في التفسير ناشئاً من رد النصوص بل قد ينشأ من
استعمالها في غير مواضعها

المشهد الخامس: هل كل قول لعالم يُتبع؟

كان الشيخ يشرح لطلابه قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۚ﴾ (إلى ربها ناضرة ﴿٢٣﴾). [سورة القيامة: الآيات ٢٢-٢٣].

ثم سألهم: ما الذي تفهمونه من هذه الآية؟

أحد الطلاب: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.

الشيخ: وما دليلك؟

الطالب: ظاهر الآية فإن النظر إذا عُدِّي بـ «إلى» دل على نظر العين.

الشيخ: أحسنت.

فقال طالب آخر: لكن يا شيخ... وجدت أثرًا عن الإمام مجاهد أنه

قال: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾

أي: تنظر ثواب ربها. وفي رواية: تنظر رزقه وفضله.

فسكت الطلاب.

ثم قال أحدهم: إذا كان مجاهد يقول هذا فلماذا لا نأخذ بقوله؟

فابتسم الشيخ وقال: سؤال جميل لكن قبل أن نجيب... من هو

مجاهد؟

الطالب: إمام كبير في التفسير ومن أجل تلاميذ ابن عباس.

الشيخ: نعم. ومن أعلام الأمة. لكن هل العصمة للأئمة؟

الطالب: لا. العصمة للأنبياء.

الشيخ: أحسنت. إذن الميزان ليس: من قال؟ بل: ما الدليل؟

ثم قال الشيخ: دعونا ننظر إلى مجموع الأدلة هل هذه الآية وحدها

في الباب؟

الطالب: لا.

الشيخ: فقد ثبت عن النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة المتواترة إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

ومن ذلك قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر».

الطالب: إذن جاءت السنة مفسرة للآية؟

الشيخ: بل جاءت مؤكدة لما دل عليه ظاهرها.

ثم قال الشيخ: والأعجب من ذلك أن مجاهدًا نفسه ثبت عنه في

تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: آية ٢٦] «

أن الزيادة: «النظر إلى وجه الله».

الطالب: إذن لا يمكن أن يكون من نفاة الرؤية أصلاً.

الشيخ: أحسنت. ولهذا عد العلماء هذا القول من مجاهد قولاً شاذاً غير متابع عليه ولم يجعلوه مذهباً له.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ ليس في وجود قول شاذ بل في التعلق به وترك الأدلة الكثيرة المحكمة لأجله.

فقال الشيخ: وهذا هو المقصود.

فقد يزل العالم في مسألة لكن المصيبة أن يُترك القرآن والسنة وما عليه جمهور السلف لأجل تلك الزلة.

❁ ما التفسير الصحيح؟

المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ «نظر المؤمنين إلى ربهم سبحانه يوم القيامة».

ويدل على ذلك ظاهر الآية، والأحاديث الصحيحة المتواترة، وما عليه جماهير أهل السنة.

أما ما روي عن مجاهد في خلاف ذلك فهو قول شاذ لا يقاوم تلك الأدلة.

❁ فائدة نفيسة

زلة العالم لا تُتبع.

❁ القاعدة الذهبية

إذا خالف القول الشاذ ظاهر القرآن والسنة وما عليه عامة السلف،
لم يُلفت إليه مهما كان قائله.

❁ خلاصة المشهد

من أسباب الخطأ في التفسير:
التعلق بالأقوال الشاذة لمجرد صدورها من عالم كبير.
والمنهج الصحيح أن يُعرف الرجال بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال.
فالعالم يُعذر في اجتهاده أما الدليل فلا يُترك لأجل أحد

المشهد السادس: هل كل ما لا أتصوره أردّه؟

كان الشيخ يقرأ مع طلابه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة
الأعراف: آية ١٧٢]..

ثم سألهم: ما الذي تفهمونه من ظاهر الآية؟

أحد الطلاب: أن الله أخذ الميثاق على ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم فأقروا له بالربوبية.

الشيخ: أحسنت.

فقال طالب آخر: لكن يا شيخ... كيف يعقل هذا؟

كيف يتكلم الذر؟ وكيف يشهد؟ وكيف يجيب؟

وكيف يتذكر الإنسان ميثاقاً أخذه قبل وجوده في الدنيا؟

فنظر الشيخ إليه وقال: سؤالك هذا قديم وقد سلك بسببه أقوام مسلكاً آخر.

الطالب: وما هو؟

الشيخ: قالوا: لم يقع هذا أصلاً وإنما الآية مجرد تمثيل أو المقصود بها الفطرة والعقل أو أن الله نصب الأدلة في الأنفس فكأنهم شهدوا.

الطالب: ولماذا قالوا ذلك؟

الشيخ: لأنهم استبعدوا وقوع الميثاق على حقيقته فانتقلوا من: «لا نفهم الكيفية». إلى: «إذن لم يقع الأمر حقيقة».

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: يا أبنائي... هل كل ما لا نعرف كيفيته يكون مستحيلاً؟

الطالب: لا.

الشيخ: هل نعرف كيفية كلام الملائكة؟

الطالب: لا.

الشيخ: هل نعرف كيفية نعيم الجنة؟

الطالب: لا.

الشيخ: هل نعرف كيفية عذاب القبر؟

الطالب: لا.

الشيخ: ومع ذلك نؤمن به لأن الله أخبرنا به.

ثم قال الشيخ: المشكلة ليست في الآية بل في جعل العقل المحدود حاكماً على عالم الغيب.

الطالب: إذن الفرق بين أهل السنة وغيرهم هنا؟

الشيخ: أن أهل السنة يقولون: وقع الميثاق كما أخبر الله ورسوله ونؤمن به أما كيف وقع؟

فهذا من الغيب الذي لا ندرك تفاصيله إلا بخبر صحيح.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن جهلنا بكيفية الشيء لا يبرر إنكار أصله.

فقال الشيخ: وهذه قاعدة عظيمة فكم من حقائق الغيب رُدت بسبب هذا الوهم.

ثم قال الشيخ: ولو فتحنا هذا الباب... لأمكن لكل أحد أن يرد ما شاء من أخبار الوحي بحجة أنه لا يتصوره.

❁ ما التفسير الصحيح؟

التفسير الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين من السلف والخلف: أن الله سبحانه أخذ الميثاق على ذرية آدم حقيقة، فأخرجهم من ظهور آبائهم، وأشهدهم على أنفسهم، وقررهم بربوبيته وألوهيته. فقال لهم: «**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**» فأجابوا: «**بَلَىٰ**».

وكان ذلك ميثاقاً حقيقياً وقع بالفعل، لا مجرد تمثيل أو تخيل أو نصب للأدلة فقط.

وقد دلت الآية على ذلك بظاهرها، وجاءت الأحاديث والآثار مؤيدة له، وجرى عليه جمهور المفسرين من السلف والخلف. كما أن الله تعالى فطر عباده بعد ذلك على الإقرار بربوبيته، ثم أرسل الرسل يذكرونهم بذلك الميثاق ويقىمون عليهم الحجة.

أما كيفية هذا الإشهاد وكيفية ذلك الميثاق، فهي من أمور الغيب التي لا يعلم تفصيلها إلا الله، ولا يلزم من جهلنا بكيفية إنكار أصل وقوعها.

فكما نؤمن بالجنة والنار والملائكة والبعث والحساب مع جهلنا بكثير من تفاصيل كيفياتها، فكذا نؤمن بهذا الميثاق كما أخبر الله به.

❁ فائدة نفيسة

الغيبات تثبت بالخبر الصادق، لا بقياسها على المحسوسات.

❁ القاعدة الذهبية

العجز عن تصور الكيفية لا يستلزم استحالة الحقيقة.

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الخطأ في تفسير آيات الغيب:

أن يحاول الإنسان إخضاع الغيب لقوانين عالم الشهادة فإذا لم يفهم الكيفية رد الحقيقة.

أما منهج أهل السنة فهو الإيمان بما أخبر الله به، مع التسليم بأن تفاصيل الغيب أوسع من مدارك العقول البشرية.

فليس كل ما خفيت كیفیته یجوز تأویله أو إنكاره، بل الواجب إثبات
ما أثبتته الله ورسوله، وتفویض علم الكيفية إلى الله سبحانه



الفصل الثالث

الاعتماد على المأثور في كتب التفسير دون الاجتهاد في التمييز
بين صحيحه وسقيمه

✿ المهارة التي سنتعلمها

كيف نتعامل مع الروايات والقصص الواردة في كتب التفسير؟
وهل مجرد وجود الرواية في كتب التفسير يجعلها صحيحة؟

المشهد الأول: هل كل ما في كتب التفسير صحيح؟

كان أحد الطلاب يقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِـِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة التوبة: آية ٧٥].

ثم قال بحماس: يا شيخ! وجدت قصة عجيبة في سبب نزول هذه الآية.

الشيخ: وما هي؟

الطالب: ذكر المفسرون أن ثعلبة بن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فقيراً فجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطلب منه أن يدعو الله له بالمال ثم أغناه الله فلما جاء وقت الزكاة بخل بها وامتنع من إخراجها.

فنزلت الآية فيه.

ثم ندم بعد ذلك وجاء بركاته لكن النبي ﷺ لم يقبلها منه ثم لم يقبلها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان حتى مات.

الشيخ: وأين وجدت هذه القصة؟

الطالب: في عدد من كتب التفسير وقد ذكرها جماعة من كبار المفسرين.

فابتسم الشيخ وقال: وهل وجود القصة في كتاب تفسير يكفي للحكم بصحتها؟

الطالب: أليست كذلك؟

الشيخ: لو كان الأمر كذلك لما احتاج العلماء إلى علم الجرح والتعديل ولا إلى نقد الأسانيد والامتون.

فسكت الطالب.

فقال الشيخ: يا بني... كثير من المفسرين يجمع الروايات ثم يترك للقارئ أو للباحث مهمة التمييز بينها فليس كل ما يورده المفسر يعتد بصحته.

الطالب: إذن ماذا قال العلماء في هذه القصة؟

الشيخ: تكلم عليها أهل العلم من جهتين:

أولاً: من جهة السند فقد ضعفها عدد من المحققين.

وثانياً: من جهة المتن وفيها إشكالات كثيرة.

الطالب: مثل ماذا؟

الشيخ: من ذلك أن ظاهر القصة يدل على أن ثعلبة تاب توبة ظاهرة وصادقة ثم مع ذلك لم تقبل توبته ولا زكاته ولا في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء من بعده.

الطالب: وهذا مخالف لأصول الشريعة؟

الشيخ: نعم. فالشريعة مبنية على قبول توبة التائب إذا صدق في توبته ولذلك استشكل عدد من العلماء هذه الرواية.

ثم قال الشيخ: بل إن ظاهر الآيات يدل على أن صاحب هذه الصفات استمر على نفاقه بينما القصة تصوره نادماً باكياً تائباً.

لحظة اكتشاف ❁

قال الطالب: إذن الخطأ لم يكن في الآية بل في قبول كل ما نُقل في تفسيرها دون تمحيص.

فقال الشيخ: أحسنت وهذا من أكثر الأخطاء انتشاراً بين طلاب العلم.

فبعضهم يظن أن كل ما وجدته في كتب التفسير حق لا ريب فيه.
مع أن المفسرين أنفسهم قد يوردون الصحيح والضعيف والمنكر.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الآية تتحدث عن قوم عاهدوا الله على الطاعة والصدقة إن وسع
عليهم في الرزق.

فلما آتاهم الله من فضله بخلوا وأعرضوا ونقضوا عهدهم.
أما تخصيص الآية بثعلبة بن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعتماداً على القصة
المشهورة، فذلك لا يثبت لضعف الرواية ونكارة بعض ما فيها ولهذا لا
يصح بناء التفسير عليها.

ويبقى معنى الآية عاماً على ما دلت عليه ألفاظها.

❁ فائدة نفيسة

العبرة بثبوت الرواية لا بمجرد شهرتها في كتب التفسير.

❁ القاعدة الذهبية

ليس كل ما يُروى في التفسير يُقبل، بل لا بد من النظر في سنده ومرتبه.

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الخطأ في التفسير:
أن يتحول طالب العلم من باحث عن الدليل إلى مجرد ناقل للروايات.
فالعلماء لم يميزوا الصحيح من السقيم عبثاً.
والمفسر الناجح ليس من يجمع الأقوال بل من يعرف ما يثبت منها
وما لا يثبت.



الباب الثالث

انحراف النصوص القرآنية للأهواء والتعصبات والبدع

إذا كان الخطأ في الباب الأول ناشئاً عن فساد المصدر وكان الخطأ في الباب الثاني ناشئاً عن فساد الفهم والاستدلال.

فإن الخطأ في هذا الباب أشد خطراً من ذلك كله لأن صاحبه قد يعرف النص ويعرف صحته ويعرف دلالاته ثم يحمله مع ذلك على ما يوافق هواه أو مذهبه أو طائفته.

فتصبح النصوص تابعة للأفكار بعد أن كان الواجب أن تكون الأفكار تابعة للنصوص.

ولهذا كان السلف يعدون الهوى من أعظم أسباب الانحراف في فهم القرآن.

قال بعض السلف: «ما أتى أحدٌ إلا من قبل هواه».

فالهوى قد يحجب صاحبه عن رؤية الحق مع ظهوره ويجعله يقرأ الآية نفسها التي يقرأها غيره، ثم يخرج منها بنتيجة مختلفة تماماً؛ لأن الحاكم عنده ليس النص، وإنما الهوى السابق للنص.



الفصل الأول

التعصب المذهبي والسياسي

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف أميز بين التفسير الذي انطلق من النص؟
والتفسير الذي انطلق من المذهب ثم أسقط على النص؟

✽ أصل مهم

ليس كل خطأ في التفسير سببه الجهل بل قد يكون سببه التعصب.
فالتعصب لا يبحث عما تدل عليه الآية وإنما يبحث عما يؤيد رأيه
من الآية.

المشهد الأول: هل تكفي آيات الوعيد وحدها؟

جلس الطلاب في مجلس شيخهم يتدارسون آيات الوعيد في القرآن.
فقرأ أحدهم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ
حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [سورة النساء: آية ١٤].

وقرأ آخر: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا
فِيهَا﴾ [سورة النساء: آية ٩٣].

وقرأ ثالث: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ٨٠].

ثم قال أحد الطلاب: يا شيخ! الأمر واضح مرتكب الكبيرة مخلد في النار فهذه الآيات صريحة في ذلك.

فقال الشيخ: وهذا القول قال به طوائف من أهل البدع قديماً لكن دعني أسألك: هل جمعت جميع النصوص في الباب؟

الطالب: أليست هذه الآيات كافية؟

الشيخ: وهل القرآن يؤخذ بعضه دون بعض؟ فسكت الطالب.

فقال الشيخ: ماذا تصنع مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: آية ٤٨]؟
الطالب: هذه آية أخرى.

الشيخ: بل هي من نفس الباب فالله أخبر أن ما دون الشرك داخل تحت مشيئته إن شاء غفر وإن شاء عذب.

ثم قال الشيخ: وماذا تصنع مع أحاديث الشفاعة الكثيرة؟
وماذا تصنع مع النصوص الدالة على خروج قوم من النار؟

الطالب: إذن لا يجوز أن آخذ آيات الوعيد وحدها؟

الشيخ: هذا هو موضع الخطأ.

فالخوارج والمعتزلة أخذوا نصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد والشفاعة والمغفرة.

فخرجوا بنتيجة توافق مذهبهم.

الطالب: إذن المشكلة لم تكن في الآيات؟

الشيخ: أبداً الآيات حق لكن الخطأ في جمع بعضها وترك بعضها.

ثم قال الشيخ: ولهذا كان أهل السنة يجمعون بين النصوص كلها. فيقولون: مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وهو تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه

وإن شاء عذبه ولا يخلد في النار ما دام مات على التوحيد.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: الآن فهمت المذهب سبق الدليل ثم جمعت النصوص التي تؤيده وأهملت النصوص التي تخالفه.

فقال الشيخ: وهذا هو التعصب المذهبي بعينه.

❁ ما التفسير الصحيح؟

نصوص الوعيد حق ونصوص الوعد والمغفرة والشفاعة حق والواجب جمعها كلها.

فمرتكب الكبيرة لا يُكفَّر بمجرد معصيته، ولا يُحكم له بالخلود في النار إذا مات على التوحيد.

بل هو داخل تحت مشيئة الله كما قال سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

فإن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ثم مآله إلى الجنة.

❁ فائدة نفيسة

لا يجوز بناء المعتقد على طائفة من النصوص مع إهمال بقية النصوص الواردة في الباب نفسه.

❁ القاعدة الذهبية

أهل الأهواء يجمعون النصوص لمذهبهم وأهل السنة يبنون مذهبهم من مجموع النصوص.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر صور التعصب المذهبي:
أن يتحول المذهب إلى عدسة يقرأ بها الإنسان القرآن فيبحث عما
يؤيده ويتغافل عما يخالفه.
أما المنهج الصحيح فهو أن يُجعل القرآن كله حاكماً على المذهب،
لا أن يُجعل المذهب حاكماً على القرآن

المشهد الثاني: هل أفسر الآية أم أبحث عما يؤيد مذهبي؟

كان الطلاب يدرسون آيات النكاح في مجلس شيخهم.
فقرأ أحدهم قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾
[سورة البقرة: آية ٢٣٢].
وقرأ آخر: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [سورة
البقرة: آية ٢٣٠].

ثم قال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت أن بعض الفقهاء استدلوا بهذه
الآيات على أن المرأة يجوز لها أن تزوج نفسها دون ولي لأن الله أضاف
النكاح إليها.

فقال: «﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾» وقال: «﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾»
[سورة البقرة: آية ٢٣٠].

فقال الشيخ: وهل وقفت على بقية الأدلة في المسألة؟

الطالب: لا. اكتفيت بهذه الآيات.

فقال الشيخ: وهنا يبدأ الخلل. فالفقيه لا يبيني حكمًا من آية أو آيتين
ويترك بقية النصوص بل يجمع الأدلة كلها أولاً.

الطالب: وما الأدلة الأخرى؟

الشيخ: منها قول الله تعالى: «﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾»
[سورة البقرة: آية ٢٢١].

وقوله: «﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾» [سورة النور: آية ٣٢].

وقول شعيب عَلَيْهِ السَّلَام: «﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ﴾»
[سورة القصص: آية ٢٧].

ففي هذه الآيات أُسند الإنكاح إلى الأولياء.

ثم قال الشيخ: وماذا عن السنة؟

الطالب: ورد: «لا نكاح إلا بولي».

وورد: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل».

الشيخ: أحسنت.

ثم سأل الشيخ: الآن أخبرني: هل يصح أن آخذ الآيات التي تؤيد قولي ثم أترك بقية الآيات والأحاديث؟

الطالب: لا. بل يجب جمعها كلها.

الشيخ: وهذا هو المقصود. فالمشكلة ليست في الاستدلال بالآية. وإنما في الاختصار عليها مع إهمال بقية النصوص.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن المتعصب يبدأ بالمذهب ثم يبحث عن الأدلة التي توافقه.

أما طالب الحق فيبدأ بالأدلة كلها ثم يبنى مذهبه عليها.
فقال الشيخ: وهذا هو الفرق بين الاتباع والتعصب.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الواجب عند النظر في المسائل الفقهية جمع جميع النصوص الواردة في الباب من القرآن والسنة، ثم فهمها على ضوء بعضها بعضاً.
فلا يجوز أن يُكتفى بآية أو دليل واحد مع إغفال بقية الأدلة.

وإنما يُنظر في مجموع النصوص حتى يظهر المراد الشرعي على وجهه الصحيح.

❁ فائدة نفيسة

من جمع الأدلة اهتدى ومن اقتصر على بعضها ضل أو قارب الضلال.

❁ القاعدة الذهبية

المذهب يُبنى من الأدلة، لا أن تُنتقى الأدلة لخدمة المذهب.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر صور التعصب الفقهي:
أن يتحول الباحث من طالب للحق إلى محامٍ عن المذهب فيبدأ باختيار النتيجة أولاً.
ثم يبحث بعد ذلك عما يؤيدها من النصوص.
أما المنهج الصحيح فهو أن يبدأ بالنصوص كلها، ثم يجعلها هي التي تقوده إلى النتيجة.



الفصل الثاني

بث الزندقة والإلحاد في التفسير

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نتعامل مع الشبهات التي تُعارض النصوص القرآنية بالواقع المتوهم أو بالمشاهدات الجزئية؟

المشهد الأول: هل أخطأت الآية أم أخطأ الفهم؟

كان الشيخ جالساً مع طلابه يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [سورة هود: آية ٦].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت لبعض المعاصرين كلاماً أوقفني. يقول: إن هذه الآية ليست على ظاهرها وإنما من الشعارات التي يراد بها المبالغة وإلا فكيف نقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ونحن نرى ملايين البشر قد ماتوا جوعاً عبر التاريخ؟ فسكت الطلاب.

ثم قال أحدهم: نعم. كيف نجيب عن هذا الإشكال؟

فنظر الشيخ إليهم وقال: قبل أن نجيب... دعوني أسأل: هل الآية تقول: «لن يجوع أحد»؟

الطالب: لا.

الشيخ: هل تقول: «سيصل الرزق إلى كل إنسان بلا سبب ولا سعي»؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن من أين جاء هذا الفهم؟

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: الآية تثبت أن الله هو الرزاق وأن أرزاق الخلق كلها بيده سبحانه.

أما كيفية وصول الرزق وأسباب حصوله أو منعه وما يقع من ظلم الناس بعضهم لبعض.

وما يقع من ابتلاءات ومجاعات فهذا باب آخر.

الطالب: إذن وجود الجوع لا ينقض الآية؟

الشيخ: بل لا علاقة له بنقضها أصلاً فالله هو الذي يرزق وهو الذي يبتلي وهو الذي يوسع ويقدر. كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سورة الرعد: آية ٢٦].

ثم قال الشيخ: ولو تأملت القرآن كله لوجدته يربط الرزق بالأسباب

فأمر بالسعي وأمر بالعمل وأمر بالمشي في الأرض فقال: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [سورة الملك: آية ١٥].

الطالب: إذن المشكلة ليست في الآية بل في تحميلها معنى لم تدل عليه.

الشيخ: أحسنت فصاحب الشبهة فهم من الآية أن الرزق يعني امتلاء البطون دائماً وأن عدم حصول ذلك في بعض الأحوال يعني بطلان الآية ثم بنى على هذا الفهم الخاطيء اتهام النص بالمبالغة.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ بدأ من تصور معنى الآية ثم انتهى إلى الطعن فيها.

فقال الشيخ: وهذا هو مسلك كثير من أهل الإلحاد يفسر النص تفسيراً لم يقصده.

ثم يهاجم هذا التفسير الذي اخترعه بنفسه.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الآية الكريمة تثبت أن الله سبحانه هو الرزاق لجميع خلقه، وأن أرزاق العباد والدواب بيده وحده

فلا رازق على الحقيقة إلا الله ولا يخرج مخلوق عن سلطان رزقه وتقديره.

لكن الله جعل للرزق أسباباً، وأمر بالسعي إليها، وقد يتلى بعض عباده بالفقر أو الجوع أو منع بعض أسباب الرزق لحكمة يعلمها سبحانه. كما أن ما يقع من مجاعات أو موت بسبب الظلم أو الحروب أو الفساد لا يخرج عن كونه واقعاً تحت تقدير الله الكوني، ولا يناقض كونه سبحانه هو الرزاق.

فالآية خبر حق على ظاهرها، لا مبالغة فيه ولا مجاز يقتضي نفي حقيقته.

❁ فائدة نفيسة

الخطأ في فهم النص لا يجيز الطعن في النص.

❁ القاعدة الذهبية

إذا بدا التعارض بين الوحي والواقع، فابدأ بمراجعة فهمك للوحي قبل اتهام الوحي نفسه.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر مسالك الإلحاد في التفسير:

أن يُحمَّل النص ما لا يدل عليه ثم يُحاكَم إلى هذا الفهم الخاطئ ثم يُتهم بعد ذلك بالمبالغة أو الخطأ.

أما المنهج الصحيح فيبدأ بفهم النص كما أراده الله، ثم ينظر في الواقع على ضوء ذلك الفهم، لا العكس.



الفصل الثالث

نصرة الأهواء ونشر البدع

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نفرق بين ما يذكره القرآن على سبيل الحكاية؟
وما يذكره على سبيل الإقرار والتشريع؟

المشهد الأول: هل كل ما حكاه القرآن مشروع؟

كان الشيخ يشرح قصة أصحاب الكهف فقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، يستدل بعض الناس بهذه الآية على جواز بناء المساجد على القبور ويقولون: إن الله ذكر هذا الفعل في القرآن ولم ينكره فدل على جوازه.

فقال الشيخ: قبل أن نجيب... دعني أسألك سؤالاً.

هل كل فعل حكاه القرآن يكون مشروعاً؟

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: ألم يحك القرآن قول فرعون؟ وقول إبليس؟ وقول

المشركين؟ وقول المنافقين؟

الطالب: بلى.

الشيخ: فهل مجرد حكاية القرآن لأقوالهم تجعلها حقاً؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن لا بد من دليل آخر يدل على الإقرار فمجرد الحكاية لا تكفي.

ثم قال الشيخ: وتأمل الآية نفسها هل قالت: «فأثنى الله عليهم». أو: «وأمر بذلك».

أو: «فكان فعلهم صواباً».

الطالب: لا.

الشيخ: بل قالت: «﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾».

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: وقد نبه العلماء إلى لطيفة عظيمة هنا فالله لم يقل: «قال الذين أوتوا العلم».

ولا: «قال الصالحون». ولا: «قال المؤمنون». بل قال: «﴿الَّذِينَ

غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾».

الطالب: وكأن الآية تشير إلى أن القرار كان قرار أصحاب سلطان وقوة؟

الشيخ: أحسنت. ولهذا قال ابن رجب **رَحْمَةُ اللَّهِ**: إن الآية تشعر بأن هذا الفعل كان من أهل الغلبة والسلطان لا من أهل العلم والاتباع.
ثم قال الشيخ: والأهم من ذلك كله: ماذا نصنع مع الأحاديث الصحيحة؟

الطالب: أي الأحاديث؟

الشيخ: قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

الطالب: إذن عندنا نص صريح في النهي؟

الشيخ: بل في اللعن والتحذير الشديد.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ أنهم أخذوا آية محتملة وتركوا نصوصاً صريحة محكمة في الباب.

فقال الشيخ: وهذه طريقة كثير من أهل البدع يتعلقون بما يحتمل ويتركون ما يفسره ويبيّنه.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الآية الكريمة تحكي ما قاله الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف حين اختلفوا في شأنهم.

فقال فريق: «لَتَتَّخِذَ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا» ❁. وهي حكاية لقولهم، لا دليل فيها على إقرار فعلهم ولا على مشروعيته.

بل جاءت السنة الصحيحة الصريحة بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد، والتحذير الشديد من ذلك.

فلا يجوز جعل الآية معارضة للأحاديث المحكمة، فضلاً عن أن تُجعل دليلاً على خلافها.

❁ فائدة نفيسة

الحكاية القرآنية لا تدل على المشروعية بمجرد ما.

❁ القاعدة الذهبية

ليس كل ما ذكره القرآن مقراً، بل لا بد من النظر: هل ورد على سبيل المدح أم الذم أم مجرد الحكاية؟

❁ خلاصة المشهد

من أخطر وسائل نصرة البدع:
أن يؤخذ نص محتمل ثم يُترك لأجله النص الصريح.
فإذا اجتمع نص محتمل ونص محكم، كان الواجب رد المحتمل
إلى المحكم.
أما أهل الأهواء فكثيراً ما يعكسون القضية، فيجعلون المحتمل
أصلاً، ثم يؤولون المحكم ليتوافق معه



الفصل الرابع

تأويلات الصوفية والباطنية للآيات

المهارة التي سنتعلمها

كيف نفرق بين التفسير الصحيح للآية؟

وبين الخواطر والإشارات التي قد تكون حسنة في نفسها لكنها ليست تفسيراً للآية؟

المشهد الأول: هل المائدة هي المعارف الكشفية؟

كان الشيخ يشرح قصة المائدة في سورة المائدة. فقرأ قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سورة المائدة: آية ١١٢].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت لبعض المتصوفة تفسيراً عجيباً لهذه الآية.

الشيخ: وما هو؟

الطالب: إن المائدة ليست طعاماً حقيقياً وإنما هي حقائق المعارف والكشوف والأسرار الروحية وأن غذاء الأرواح بالمعارف كغذاء الأجساد بالطعام

فسكت بعض الطلاب إعجابًا بالكلام.

وقال أحدهم: في الحقيقة يبدو معنى جميلًا!

فابتسم الشيخ وقال: قد يكون جميلًا لكن السؤال ليس: هل المعنى

جميل؟

السؤال: هل هذا هو مراد الله من الآية؟

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: دعونا نرجع إلى الآيات.

هل كان الحواريون يتحدثون عن المعرفة؟ أم عن مائدة يأكلون

منها؟

الطالب: الآيات كلها تدل على الطعام.

الشيخ: وكيف ذلك؟

الطالب: لأنهم قالوا بعد ذلك: «﴿نَزِيدُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا﴾» [سورة المائدة:

آية ١١٣].

الشيخ: أحسنت.

طالب آخر: وقالوا: «﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾». وقالوا: «﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ

صَدَقْتَنَا﴾».

إذن السياق كله يتحدث عن مائدة حقيقية وآية حسية.

ثم قال الشيخ: فلو جاء شخص وقال: المقصود بالمائدة هنا علوم الباطن وأسرار الكشف.

فمن أين جاء بهذا المعنى؟

الطالب: ليس من ألفاظ الآية ولا من سياقها.

الشيخ: وهنا موضع الخطأ.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن قد يكون المعنى حسناً في نفسه لكن لا يجوز أن نسميه تفسيراً للآية.

فقال الشيخ: أحسنت. وهذا من أهم الفروق التي يغفل عنها كثير من الناس.

❁ ما التفسير الصحيح؟

المائدة المذكورة في الآية هي مائدة حقيقية أنزلها الله من السماء استجابة لدعاء عيسى **عليه السلام**، وكانت آية ظاهرة لبني إسرائيل.

وقد طلب الحواريون إنزالها ليأكلوا منها، وتطمئن قلوبهم، ويزدادوا يقيناً بصدق نبهم.

فالسباق واللغة وأقوال المفسرين كلها تدل على أن المراد مائدة حقيقية لا رمزية ولا معارف كشفية.

وأما ما يذكره بعض الصوفية من الإشارات والخواطر الروحية، فقد يكون معنى يستأنس به في باب الوعظ أو التذكير، لكنه ليس تفسيرًا للآية ولا بيانًا لمراد الله منها.

❁ فائدة نفيسة

كل معنى حسن ليس بالضرورة تفسيرًا صحيحًا.

❁ القاعدة الذهبية

التفسير يُبنى على دلالة اللفظ والسياق وأقوال السلف، لا على الأذواق والكشوف والإشارات المجردة.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر أبواب الانحراف في التفسير: تحويل القرآن من كتاب هداية وبيان إلى رموز وإشارات لا يدل عليها لفظ ولا سياق فقد يكون المعنى المستخرج جميلًا في نفسه، لكن الجمال لا يكفي لجعله تفسيرًا للآية.

ولهذا كان السلف يسألون دائمًا: هل دل عليه النص؟ فإن دل عليه قبلوه وإن لم يدل عليه ردوه، ولو بدا حسنًا في ظاهره.

الفصل الخامس

دعوة التجديد والثورة على القديم

المهارة التي سنتعلمها

كيف نفرق بين التجديد المشروع في عرض الشريعة وفهمها، وبين تغيير الأحكام الشرعية الثابتة باسم التجديد؟

المشهد الأول: هل جاء التفسير أولاً أم النتيجة أولاً؟

كان الشيخ يتدارس مع طلابه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْهَى فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [سورة النساء: آية ٣].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت تفسيراً جديداً لهذه الآية يقول صاحبه: إن التعدد لا يجوز أصلاً إلا عند الزواج من نساء اليتامى.

أما التعدد من غيرهن فغير مشروع فقال الشيخ:

الشيخ: وما دليله؟

الطالب: إن قوله تعالى: ﴿فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾

أي من نساء اليتامى خاصة ثم قال: إن التعدد لم يشرع إلا لهذه الحالة الاستثنائية.

فسكت الشيخ قليلاً ثم قال: وهل فهم هذا المعنى أحد من الصحابة؟

الطالب: لا أعلم.

الشيخ: وهل قال به التابعون؟

الطالب: لا.

الشيخ: وهل قال به الأئمة الأربعة؟

الطالب: لا.

فقال الشيخ: إذن دعنا نرجع إلى أصل القضية.

هل الآية جاءت لتقيد التعدد بنساء اليتامى؟

أم جاءت لتبين عدد الزوجات المباح؟

الطالب: ظاهرها بيان الإباحة: «﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾».

الشيخ: أحسنت.

ثم قال طالب آخر: لكن هناك من يستدل بقوله تعالى: «﴿وَلَنْ

تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدُوا لَوَائِينَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾» [سورة النساء: آية ١٢٩].

ويقول: بما أن العدل مستحيل، فالتعدد ممنوع.

فقال الشيخ: وهل يمكن أن يبيح الله شيئاً في آية ثم يحرمه في آية

أخرى دون بيان؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن ما المقصود بالعدل هنا؟

الطالب: لعله العدل الكامل في المحبة وميل القلب.

الشيخ: أحسنت. ولهذا قال بعدها: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾

[سورة النساء: آية ١٢٩].

فدل على أن المنفي هو كمال التسوية في المحبة القلبية، لا العدل الواجب في النفقة والمبيت والحقوق.

ثم قال الشيخ: والأعجب من ذلك أن بعضهم لم يقف عند هذا الحد بل زعم أن تعدد الأنبياء غير صحيح وأن ما ثبت في ذلك افتراء عليهم. فنظر الطلاب متعجبين.

الشيخ: وهنا يظهر الخلل الحقيقي فلم يعد النص هو الذي يقود الفكرة بل أصبحت الفكرة المسبقة هي التي تعيد تشكيل النصوص.

لحظة اكتشاف ❁

قال الطالب: إذن المشكلة ليست في البحث عن فهم جديد بل في فرض نتيجة مسبقة على القرآن.

فقال الشيخ: أحسنت. فالتجديد المحمود هو الرجوع إلى النصوص لفهمها.

أما التجديد المذموم فهو تغيير معاني النصوص لتوافق الأفكار المعاصرة.

❁ ما التفسير الصحيح؟

دلت الآية الكريمة على إباحة التعدد إلى أربع زوجات مع اشتراط العدل.

وقد فهم ذلك الصحابة والتابعون وجماهير الأمة عبر القرون ولم يفهم أحد منهم أن التعدد مقصور على نساء اليتامى، ولا أن الآية تمنع التعدد مطلقاً.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [سورة النساء: آية ١٢٩] فالمراد به العدل الكامل في المحبة وميل القلب، وهو أمر خارج عن قدرة الإنسان، لا العدل الواجب في الحقوق الظاهرة الذي أمر الله به وأوجبه.

❁ فائدة نفيسة

الأحكام الشرعية الثابتة لا تُغيّر بدعوى التجديد.

القاعدة الذهبية

التجديد الصحيح يُرجع الناس إلى النصوص، أما التجديد المنحرف فيُخضع النصوص للأفكار المسبقة.

خلاصة المشهد

من أخطر صور الانحراف المعاصر:
أن يبدأ الإنسان بالنتيجة التي يريدّها، ثم يبحث لها عن تفسير جديد للقرآن.

فيتحول التفسير من وسيلة لفهم الوحي إلى أداة لإعادة تشكيل الوحي وفق الأهواء والأفكار السائدة.
أما أهل العلم فيجعلون النص قائداً، ويجعلون أفكارهم تابعة له، لا العكس



الفصل السادس

التكلف في التفسير العلمي

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نفرق بين الاستئناس بالعلوم الحديثة في فهم بعض الآيات، وبين تحميل القرآن ما لا يدل عليه من النظريات والاكتشافات؟

المشهد الأول: هل تحولت الطيور إلى ميكروبات؟

كان الشيخ يشرح سورة الفيل فقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾ [سورة الفيل: آية ١] إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: الآيات ٣-٤].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت تفسيرًا جديدًا لهذه الآيات يقول صاحبه: إن الطير الأبابل ليست طيورًا حقيقية وإنما هي ميكروبات أو جراثيم أو حشرات دقيقة تحمل الأمراض.

وأن الحجارة من سجيل هي تلك الجراثيم الفتاكة التي أهلكت جيش أبرهة.

فنظر بعض الطلاب بإعجاب.

وقال أحدهم: يبدو تفسيرًا علميًا جميلًا!

فابتسم الشيخ وقال: جميل أو غير جميل ليس هو السؤال.

السؤال: هل يدل عليه القرآن؟

فسكت الطلاب.

فقال الشيخ: دعونا نبدأ من أول الطريق.

حين نزلت سورة الفيل على العرب... ماذا كانوا يفهمون من كلمة:

«طَيْرًا؟»

الطالب: الطيور المعروفة.

الشيخ: وماذا كانوا يفهمون من: «بِحِجَارَةٍ؟»

الطالب: الحجارة المعروفة.

الشيخ: هل كان أحد منهم يفهم الميكروبات أو الجراثيم؟

الطالب: لا. فهم لم يعرفوا هذه الأشياء أصلاً.

الشيخ: أحسنت. والقرآن نزل بلغة العرب.

ثم قال الشيخ: بل تأملوا أمراً آخر سورة الفيل نزلت في مكة وكان بين

المخاطبين من عاصر الحادثة بل من رأى آثارها فلو أن القرآن أخبرهم

بطيور لم يروها أصلاً ولا وجود لها في الواقع الذي يعرفونه لكان ذلك

باباً للطعن والتكذيب.

الطالب: إذن ظاهر الآيات يدل على أن طيورًا حقيقية أُرسِلت عليهم؟

الشيخ: نعم. وطيورًا حقيقية رمتهم بحجارة حقيقية كما أخبر الله.

أما كيف كان ذلك؟ وما صفات تلك الطيور؟ فهذا شيء آخر.

ثم قال الشيخ: يا أبنائي... العلم الحديث يُستفاد منه لكن لا يجوز أن نحول القرآن إلى كتاب نظريات متغيرة فإذا تغيرت النظرية اهتز تفسير الآية معها.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ لم يكن في العلم بل في تحميل ألفاظ القرآن ما لا تدل عليه.

فقال الشيخ: وهذا هو التكلف في التفسير العلمي.

❁ ما التفسير الصحيح؟

المراد بالطير الأبايل طيور حقيقية أرسلها الله على جيش أبرهة. والمراد بالحجارة من سجيل حجارة حقيقية رمتهم بها تلك الطيور، كما دل عليه ظاهر القرآن الكريم، وكما فهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم.

ولا يوجد في ألفاظ الآيات ولا في لغة العرب ما يدل على أن المراد بالطير الميكروبات أو الجراثيم، ولا أن المراد بالحجارة الأمراض أو السموم المجهرية.

ولهذا كان حمل الآيات على هذه المعاني تحميلاً للنص ما لا يدل عليه.

❁ فائدة نفيسة

لا يجوز نقل ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ حادثة إلا بدليل صحيح.

❁ القاعدة الذهبية

العلم يُستأنس به في فهم القرآن، لكنه لا يُجعل حاكماً على دلالات ألفاظه.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر صور التكلف في التفسير العلمي: أن يبدأ المفسر بالنظرية العلمية ثم يبحث عن آية يحملها عليها أما المنهج الصحيح فيبدأ من دلالة الآية نفسها فإن وافقتها حقيقة علمية ثابتة كان ذلك زيادة في الإيمان.

وإن لم يظهر ذلك فلا يجوز ليّ معاني القرآن لتوافق كل اكتشاف أو
نظرية جديدة.

فالقرآن كتاب هداية أولاً، والعلم تابع له لا حاكم عليه



الفصل السابع

إنشاء معانٍ ومعتقدات ثم التكلف في حمل ألفاظ القرآن عليها

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نميز بين المعنى الذي استُخرج من القرآن؟
والمعنى الذي وُضع أولاً ثم أُجبرت الآيات على حمله؟

المشهد الأول: من أين جاءت الثلاثة أيام والأربعون يوماً؟

كان الطلاب يتحدثون عن بعض البرامج الدعوية.

فقال أحدهم: يا شيخ، سمعت بعضهم يستدل على الخروج للدعوة
ثلاثة أيام أو أربعين يوماً بآيات من القرآن.
الشيخ: وما هذه الآيات؟

الطالب: يقولون: قال الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾
[سورة هود: آية ٦٥]». ويقول تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا
بِعَشْرٍ فِتْنَمَ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [سورة الأعراف: آية ١٤٢]». فيجعلون
الثلاثة أيام والأربعين يوماً أصلاً لهذا البرنامج.
فسكت الشيخ قليلاً.

ثم قال: الشيخ: دعني أسألك سؤالاً هل نزلت آية: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ في بيان برنامج دعوي؟

الطالب: لا. هذه في قصة قوم صالح.

الشيخ: أحسنت. وهل نزلت آية: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لتشريع مدة للخروج والدعوة؟

الطالب: لا. هذه في ميقات موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

الشيخ: إذن كيف تحولت الآيتان إلى دليل على تحديد مدة معينة للدعوة؟

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: يا أبنائي... هناك فرق بين: أن نستأنس بقصة أو موقف وبين أن نجعلها أصلاً شرعياً ملزماً أو سنة مقصودة.

الطالب: إذن مجرد ورود رقم في القرآن لا يجعله تشريعاً؟

الشيخ: بالضبط. فالقرآن مليء بالأعداد: ثلاثة وسبعة وأربعون وسبعون ومئة وألف.

فهل كل عدد منها يصبح عبادة أو نظاماً شرعياً؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن لا بد أن نسأل دائماً: هل الآية جاءت للتشريع؟ أم جاءت لذكر قصة أو حادثة معينة؟

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ لم يكن في الآيات بل في إنشاء الفكرة أولاً ثم البحث عن أرقام تؤيدها من القرآن.

فقال الشيخ: وهذا هو المقصود تماماً فالتفسير الصحيح ينطلق من الآية إلى المعنى.

أما التفسير المنحرف فينطلق من المعنى المسبق إلى الآية.

❁ ما التفسير الصحيح؟

قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ خبر عن قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وإنذار لهم قبل نزول العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إخبار عن المدة التي واعد الله فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولا تدل أي من الآيتين على تشريع مدة معينة للخروج للدعوة أو التبليغ.

لأن الأعداد المذكورة فيهما وردت في سياق أخبار وقصص، لا في سياق الأحكام والتشريعات.

❁ فائدة نفيسة

مجرد موافقة العدد لفكرة معينة لا يجعل الآية دليلاً عليها.

❁ القاعدة الذهبية

الأحكام الشرعية تُؤخذ من النصوص التي سقت للتشريع، لا من مجرد الأرقام والأحداث الواردة في القصص.

❁ خلاصة المشهد

من أخطر مسالك التكلف في التفسير:
أن يُنشئ الإنسان فكرة أو طريقة أو معتقداً أولاً ثم يبدأ رحلة البحث في القرآن عن ألفاظ أو أرقام يمكن أن تسند لها فيتحول القرآن من مصدر للمعاني إلى مستودع للشواهد المؤيدة.
أما المنهج الصحيح فيجعل القرآن هو الذي ينشئ المعنى، لا أن يُستدعى بعد إنشاء المعنى لتأييده.



الباب الرابع

القصور في باب الشروط اللازمة للتفسير

بعد أن تعرفنا في الأبواب السابقة على أسباب الخطأ الناتجة عن ضعف المصادر، أو فساد المنهج، أو تأثير الأهواء والبدع، نتقل الآن إلى نوع آخر من أسباب الخطأ.

وهو: «القصور في الأدوات العلمية التي يحتاجها المفسر».

فقد يكون المفسر بعيداً عن البدعة وقد يكون مخلصاً في طلب الحق ومع ذلك يقع في الخطأ؛ لأنه لم يمتلك الآلة التي تعينه على فهم كلام الله فهماً صحيحاً.

ولهذا كان السلف يعدون التفسير من أشرف العلوم وأخطرها، فلا يتصدر له إلا من جمع أدواته وأحكم قواعده.

فالقرآن لا يفسره مجرد حسن النية ولا يكفي فيه كثرة القراءة بل يحتاج إلى أصول وقواعد وعلوم وضوابط تحرس المفسر من الزلل.

❁ ومن هنا جاءت فصول هذا الباب الأربعة :

١. القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين.

٢. الإعراض عن منهج السلف الصالح في التفسير.

٣. الجهل بقواعد اللغة العربية.

٤. الابتعاد عن فهم مقاصد نزول القرآن وأهدافه الأصلية.

وكل فصل من هذه الفصول يعالج أداة من أدوات المفسر إذا ضعفت أو غابت وقع بسببها الخطأ في فهم كتاب الله تعالى



الباب الرابع

القصور في باب الشروط اللازمة للتفسير

الفصل الأول

القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين

❁ القاعدة الأولى:

معنى القراءة المتواترة أولى بالصواب من معنى القراءة الشاذة

❁ المهارة التي سنتعلمها

إذا تعارض معنى مستفاد من قراءة متواترة مع معنى مستفاد من قراءة شاذة، فأيهما يقدم؟

المشهد الأول: هل السعي بين الصفا والمروة سنة أم ركن؟

كان الشيخ يشرح لطالبه آيات الحج، فقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [سورة البقرة: آية ١٥٨].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، وجدت من يقول إن السعي بين الصفا والمروة سنة وليس ركناً.

الشيخ: وما دليله؟

الطالب: استدل بقراءة: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما».

وقال: إذا كان لا جناح عليه في ترك السعي، فالسعي ليس واجباً.
فسكت الشيخ قليلاً، ثم قال: وهل هذه القراءة من القراءات المتواترة
التي يقرأ بها المسلمون؟

الطالب: لا. هي قراءة شاذة.

الشيخ: إذن قبل أن تنظر في الاستدلال... اسأل أولاً: هل ثبتت
القراءة؟

فسكت الطالب.

فقال الشيخ: يا بني... من قواعد الترجيح المهمة: أن المعنى
المستفاد من القراءة المتواترة مقدم على المعنى المستفاد من القراءة
الشاذة.

الطالب: ولماذا؟

الشيخ: لأن القراءة المتواترة قرآن متعبد بتلاوته أما الشاذة فليست
كذلك.

فكيف نترك المقطوع به إلى ما ليس كذلك؟

ثم قال الشيخ: بل دعنا نرجع إلى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقد سألتها عروة بن الزبير عن هذه الآية.

وقال: «فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما».

الطالب: وكأنه فهم مثل هذا الفهم؟

الشيخ: نعم.

فماذا قالت له عائشة؟

قالت: «بئس ما قلت يا ابن أختي». ثم بينت له سبب نزول الآية: وأن الأنصار كانوا يتخرجون من السعي بين الصفا والمروة في الجاهلية فلما أسلموا سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل الله هذه الآية.

الطالب: إذن قوله: «﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾» ليس المقصود به الإذن في الترك؟

الشيخ: أحسنت بل المقصود رفع الحرج الذي كان في نفوسهم من فعل السعي.

ثم قال الشيخ: ولهذا قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولك: «لا جناح عليك أن تفعل» إباحة للفعل وقولك: «لا جناح عليك ألا تفعل» إباحة للترك». وفرق بين العبارتين.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخطأ بدأ من تقديم معنى مستفاد من قراءة شاذة على ما دلت عليه القراءة المتواترة والسنة الصحيحة.

فقال الشيخ: وهذا هو موضع الخلل في الترجيح.

ما التفسير الصحيح؟

القراءة المتواترة هي: «﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾».

والمقصود بها رفع الحرج الذي كان عند بعض الأنصار من السعي بين الصفا والمروة بسبب ما علق في نفوسهم من أمر الجاهلية.

وليست الآية دليلاً على جواز ترك السعي.

وقد بينت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سبب النزول ووجه المعنى، وثبتت السنة العملية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السعي بين الصفا والمروة، وأجمع جمهور العلماء على أنه من شعائر الحج العظيمة.

فلا يجوز العدول عن هذا الفهم إلى معنى بني على قراءة شاذة غير متواترة.

❁ فائدة نفيسة

إذا تعارض معنى القراءة المتواترة مع معنى القراءة الشاذة، قدمت المتواترة بلا تردد.

❁ القاعدة الذهبية

القراءة الشاذة يستأنس بها في التفسير، لكنها لا تعارض القراءة المتواترة ولا تنقض حكماً ثبت بها.

❁ خلاصة المشهد

من أخطاء الترجيح عند بعض المفسرين:
أن يبنوا حكماً أو تفسيراً على قراءة شاذة، ثم يجعلوها معارضة للقراءة المتواترة أو للسنّة الصحيحة.
أما المنهج الصحيح فهو أن تبقى القراءة المتواترة هي الأصل الذي ترد إليه سائر الأقوال والقراءات



الفصل الأول

القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين

❁ القاعدة الثانية

الوجه التفسيري والإعرابي الموافق لرسم المصحف أولى من
الوجه المخالف له

❁ المهارة التي سنتعلمها

كيف نستفيد من رسم المصحف في الترجيح بين الأوجه التفسيرية
والإعرابية؟

المشهد الثاني: أين نقف في الآية؟

كان الشيخ يقرأ مع طلابه قول الله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ١﴾ الَّذِينَ إِذَا
أَكَاوَأَ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣﴾ [سورة المطففين:
الآيات ١-٣].

فقال أحد الطلاب:

يا شيخ، ما معنى: ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ١﴾؟

الشيخ: وما الذي فهمته أنت؟

الطالب: فهمت أن المعنى: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم أنقصوهم حقهم.

الشيخ: وهذا قول جمهور المفسرين.

فقال طالب آخر: لكنني قرأت وجهاً آخر أن الوقف يكون على: «﴿كَالُوا﴾» ثم على: «﴿وَزَنُوا﴾» ويكون المعنى: هم يخسرون إذا كالوا أو وزنوا.

فسكت الشيخ قليلاً.

ثم قال: الشيخ: وكيف نرجح بين الوجهين؟

الطالب: بالنظر في اللغة؟

الشيخ: نعم. ولكن هناك قرينة أخرى مهمة يغفل عنها كثير من الناس.

الطالب: وما هي؟

الشيخ: رسم المصحف.

فتعجب الطلاب.

الطالب: وهل لرسم المصحف أثر في الترجيح؟

الشيخ: نعم تأملوا الفعلين: «﴿كَالُوهُمْ﴾» «﴿وَزَنُوهُمْ﴾»

ثم قال: الشيخ: لو كان الفعلان قد اكتفيا بأنفسهما، وكان الضمير: «هم» مبتدأ بعدهما.

لُكِّتَت الكلمتان على صورة أخرى، كما كتبت نظائر أفعال الجماعة في مواضع كثيرة.

الطالب: لكن رسم المصحف جاء متصلاً بالضمير؟

الشيخ: أحسنت. فهذا يشعر بأن: «هم» متعلق بالفعل وليس مبتدأً مستقلاً بعده.

ثم قال الشيخ: ولهذا رجع جمهور المفسرين أن المعنى: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم أنقصوهم حقوقهم فيكون الضمير: «هم» في موضع نصب.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن رسم المصحف قد يكون مرجحاً بين وجهين محتملين.

فقال الشيخ: وهذه من دقائق علم التفسير التي لا ينتبه لها كثير من الناس.

❁ ما التفسير الصحيح؟

المعنى الصحيح للآية: إذا كال المطففون للناس أو وزنوا لهم أنقصوهم حقوقهم ولم يعطوهم ما يستحقون.

فالضمير في قوله: «**كَالُوْهُمَّ**» و «**وَزَوُّهُمَّ**» في موضع نصب، والمعنى: كالوا لهم أو وزنوا لهم وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين. ومن المرجحات لهذا القول موافقته لرسم المصحف العثماني، حيث لم يُفصل الضمير عن الفعلين، مما يدل على تعلقه بهما وعدم استقلاله عنهما.

❁ فائدة نفيسة

رسم المصحف العثماني من القرائن المعتمدة عند الترجيح بين الأوجه المحتملة.

❁ القاعدة الذهبية

إذا احتمل اللفظ أكثر من وجه، وكان أحدها موافقاً لرسم المصحف والآخر مخالفاً له، فالموافق أولى بالقبول ما لم يمنع منه دليل أقوى.

❁ خلاصة المشهد

من صور القصور في الترجيح: إغفال القرائن التي وضعها السلف لحفظ دلالات القرآن ومن تلك القرائن رسم المصحف العثماني. فليس مجرد هيئة كتابية، بل قد يكون مفتاحاً لفهم المعنى الصحيح وترجيح بعض الأوجه التفسيرية على بعض.

الفصل الأول

القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين

❁ القاعدة الثالثة :

القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك

❁ المهارة التي سنتعلمها

كيف نستعمل القرآن نفسه في الترجيح بين أقوال المفسرين؟

المشهد الثالث: أي الإمامتين وأي الإحيائين؟

كان الشيخ يشرح قول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ﴾ [سورة غافر: آية ١١].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، وجدت للمفسرين في الآية قولين.

الشيخ: اذكرهما.

الطالب: القول الأول: أن الإمامة الأولى كانت قبل الحياة الدنيا حين كان الإنسان عدماً أو نطفة لا حياة فيها ثم أحياه الله في الدنيا ثم أماته عند انتهاء أجله ثم أحياه يوم القيامة.

الشيخ: وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وجماعة من السلف.

والقول الثاني: أن الإمامة الأولى هي الموت بعد الحياة الدنيا ثم الإحياء في القبر للسؤال ثم إماتة أخرى في القبر ثم إحياء يوم القيامة.

الشيخ: حسن. فكيف نرجح بين القولين؟

فسكت الطلاب قليلاً.

ثم قال أحدهم: بالنظر في الأدلة؟

الشيخ: نعم وأعظم الأدلة هنا القرآن نفسه.

الطالب: كيف ذلك؟

فقال الشيخ: اقرأ قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ

أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٨].

فقرأها الطالب.

ثم قال الشيخ: كم مودة ذكرت الآية؟

الطالب: اثنتين.

الشيخ: وكم حياة؟

الطالب: اثنتين.

الشيخ: وهل ترتيبها يوافق القول الأول أم الثاني؟

فتأمل الطالب قليلاً.

ثم قال: الطالب: بل يوافق القول الأول تماماً فقد ذكر الموت قبل الحياة الدنيا ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة الآخرة.
الشيخ: أحسنت.

ثم قال الشيخ: ولهذا رجح كثير من العلماء تفسير ابن عباس وابن مسعود لأن القرآن نفسه يشهد له ويبيّنه.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الآية الأخرى أصبحت مرجحاً بين القولين.
فقال الشيخ: وهذه من أعظم قواعد التفسير فالقرآن لا يتعارض بل يصدق بعضه بعضاً ويشرح بعضه بعضاً.

❁ ما التفسير الصحيح؟

- الراجع أن الإمامتين والإحيائيين المذكورين في الآية هما:
١. الإمامة الأولى: حال الإنسان قبل الحياة الدنيا، إذ كان عدماً أو لا حياة له.
 ٢. الإحياء الأول: الحياة الدنيا.
 ٣. الإمامة الثانية: الموت عند انتهاء الأجل.
 ٤. الإحياء الثاني: البعث يوم القيامة.

ويرجح هذا التفسير موافقته لقول الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمَوتًا فَأَحْيَكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

فجاءت هذه الآية مبينة ومفسرة للآية الأخرى.

❁ فائدة نفيسة

إذا اختلف المفسرون في معنى آية، فابحث أولاً عما يبينها من آيات القرآن.

❁ القاعدة الذهبية

القول الذي يشهد له القرآن أولى من القول الذي لا شاهد له

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الخطأ في الترجيح:

أن ينظر المفسر إلى الآية منفردة أما المفسر الراسخ فيجعل القرآن كله بين عينيه.

فما أجمله موضع بيّنه موضع آخر وما احتمل أكثر من معنى رجحته آية أخرى.

ولهذا كان تفسير القرآن بالقرآن أعلى مراتب التفسير وأقواها.

وأرى أن هذه القاعدة تستحق أن نكررها كثيرًا أثناء المشروع؛ لأنها في الحقيقة ليست مجرد قاعدة ترجيح، بل هي روح التفسير كله: أن يُرجع القرآن بعضه إلى بعض قبل الالتفات إلى أي مرجح آخر



الفصل الأول

القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين

❁ القاعدة الرابعة

إذا اختلفت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية في تفسير كلام الله
قُدِّمَت الحقيقة الشرعية

❁ المهارة التي سنتعلمها

متى نحمل ألفاظ القرآن على معناها الشرعي؟ ومتى نحملها على
معناها اللغوي؟

المشهد الرابع: أي زكاة أراد الله؟

كان الشيخ يشرح قول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ [سورة فصلت: الآيات ٦-٧].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، وجدت للمفسرين قولين في الزكاة هنا.

الشيخ: اذكرهما.

القول الأول: أن المراد بالزكاة هنا تطهير النفس بالتوحيد والطاعة.

الشيخ: وهذا مبني على المعنى اللغوي للزكاة.

الطالب: نعم.

والقول الثاني: أن المراد زكاة الأموال والصدقة المفروضة.

الشيخ: فكيف نرجح بينهما؟

فسكت الطلاب قليلاً.

فقال الشيخ: إذا جاء لفظ في القرآن له حقيقة شرعية معروفة وحقيقة

لغوية أعم منها، فما الأصل؟

الطالب: أن يحمل على الحقيقة الشرعية.

الشيخ: أحسنت. فالشارع إذا أطلق الصلاة انصرف الذهن إلى

العبادة المعلومّة.

وإذا أطلق الصيام انصرف إلى العبادة المعلومّة وكذلك الزكاة.

ثم قال الشيخ: ولهذا رجح الإمام الطبري أن المراد زكاة الأموال.

الطالب: وما وجه ترجيحه؟

الشيخ: لأنه المعنى الشرعي المشهور للفظ الزكاة ثم استدلّ بدليل

لطيف.

الطالب: وما هو؟

الشيخ: لو كان المراد بالزكاة هنا التوحيد

فما فائدة قوله بعد ذلك: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؟

فسكت الطلاب. ثم قال أحدهم: لأن من لم يوحد الله فهو كافر أصلاً فلا يبقى في الآية فائدة جديدة.

الشيخ: أحسنت. ولهذا رأى الطبري أن حمل الزكاة على معناها الشرعي أولى.

فقال طالب آخر: لكن يا شيخ، سورة فصلت مكية.

وزكاة الأموال إنما فرضت بالمدينة فكيف يكون المراد زكاة المال؟

فقال الشيخ: هذا هو أشهر إشكال في المسألة وقد أجاب عنه العلماء. بماذا؟

الشيخ: قالوا: لا يلزم من كون تفاصيل الزكاة ومقاديرها فرضت بالمدينة أن يكون أصل الصدقة والإنفاق غير معروف بمكة.

بل كان أصل الإنفاق والصدقة مشروعاً قبل الهجرة، ثم جاءت المدينة بتفصيل المقادير والأنصبة والأحكام.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الأصل أن نحمل ألفاظ الشريعة على معانيها الشرعية ولا تنتقل إلى المعنى اللغوي إلا إذا دل دليل على ذلك.

فقال الشيخ: وهذه من أهم قواعد الترجيح عند المفسرين.

❁ ما التفسير الصحيح؟

اختلف المفسرون في المراد بالزكاة في الآية:

فمنهم من حملها على المعنى اللغوي وهو تطهير النفس بالتوحيد والطاعة.

ومنهم من حملها على المعنى الشرعي وهو زكاة الأموال والصدقة. والراجح هو الثاني؛ لأن الحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية عند الإطلاق، ولأن لفظ الزكاة في خطاب الشرع إذا أطلق انصرف إلى المعنى الشرعي المعروف ما لم يقم دليل صارف.

كما أن هذا التفسير تؤيده قرائن الآية وسياقها كما قرره الإمام الطبري وغيره من المحققين.

❁ فائدة نفيسة

إذا نقل الشارع لفظاً من معناه اللغوي إلى معنى شرعي خاص، فالأصل حمله على المعنى الشرعي.

❁ القاعدة الذهبية

الحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية في خطاب الوحي ما لم يمنع من ذلك دليل.

❁ خلاصة المشهد

من أخطاء الترجيح أن يترك المفسر المعنى الشرعي المستقر في ألفاظ الوحي، ثم يعود إلى أصلها اللغوي مع عدم وجود دليل يقتضي ذلك.

أما المنهج الصحيح فهو البدء بالحقيقة الشرعية؛ لأنها المعنى الذي خاطب الله به عباده في كتابه، ثم الانتقال إلى المعنى اللغوي عند الحاجة وقيام الدليل.



الفصل الثاني

الإعراض عن منهج السلف الصالح في التفسير

المهارة التي سنتعلمها

لماذا كان فهم الصحابة والتابعين للقرآن من أعظم موازين السلامة من الخطأ في التفسير؟

المشهد الأول: كلمة حق أريد بها باطل

كان الشيخ يتحدث مع طلابه عن فتنة الخوارج.

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، كيف ضل الخوارج وهم يستدلون بالقرآن؟

الشيخ: وما الآية التي كانوا يرددونها؟

الطالب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ٥٧].

الشيخ: وهل الآية حق أم باطل؟

الطالب: بل هي حق من كلام الله.

الشيخ: إذن أين وقع الخطأ؟

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: لما قبل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التحكيم بينه وبين أهل الشام، رفعت الخوارج هذه الآية.

وقالوا: لا حكم إلا لله. ثم قالوا: لقد حكم علي الرجال في دين الله. ومن فعل ذلك فقد خرج من الإيمان بل زعموا أنه لم يعد أمير المؤمنين.

الطالب: ولكن الآية تقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

الشيخ: صحيح. لكن هل فهموها كما فهمها الصحابة؟

الطالب: لا.

الشيخ: وهنا موضع الداء.

ثم قال الشيخ: هل تعلم ماذا قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سمعهم يرفعون هذه الآية؟

الطالب: ماذا قال؟

الشيخ: «كلمة حق أريد بها باطل».

فتعجب الطلاب.

الطالب: كيف تكون كلمة حق ويكون الاستدلال بها باطلاً؟

الشيخ: لأنهم وضعوها في غير موضعها فالآية حق لكن فهمهم لها باطل.

ثم قال الشيخ: ألم يقل الله تعالى في جزاء الصيد للمحرم: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة المائدة: آية ٩٥]؟

الطالب: بلى.

الشيخ: وألم يقل سبحانه: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: آية ٣٥]؟

الطالب: بلى.

الشيخ: إذن الله نفسه جعل الحكم لبعض الناس في مواضع معينة بأمره وشرعه.

فهل هذا خروج عن قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؟

الطالب: لا. بل هو من حكم الله.

الشيخ: أحسنت. فحين يحكم الرجال بشرع الله فهم منفذون لحكم الله لا مزاحمون له.

❁ لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن الخوارج لم يضلوا لأنهم تركوا القرآن بل لأنهم تركوا فهم الصحابة للقرآن.

فقال الشيخ: وهذه من أعظم القواعد في التفسير فالصحابة شهدوا التنزيل.

وعرفوا أسباب النزول وفهموا مراد الله ورسوله أكثر من غيرهم.

❁ ما التفسير الصحيح؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ معناه أن التشريع والسلطان الأعلى والحكم الحق لله وحده.

أما تحكيم القضاة والحكام وأهل العلم في الخصومات وفق شرع الله، فهو داخل في حكم الله لا خارج عنه ولهذا استدل العلماء بآيات أخرى على أن الله أذن لعباده في الحكم والقضاء والتحكيم وفق ما أنزل. فلا تعارض بين هذه النصوص وإنما وقع الخوارج في الخطأ حين عزلوا الآية عن بقية النصوص، وأعرضوا عن فهم الصحابة لها.

❁ فائدة نفيسة

سلامة الاستدلال لا تكون بصحة الآية فقط، بل بصحة فهمها.

❁ القاعدة الذهبية

إذا فهم الصحابة الآية على معنى، ثم جاء متأخر بفهم يخالفهم، فالأصل تقديم فهم الصحابة.

❁ خلاصة المشهد

من أعظم أسباب الخطأ في التفسير:

الإعراض عن منهج السلف الصالح فالخوارج كانوا يحفظون القرآن ويستدلون به، لكنهم فارقوا فهم الصحابة، فخرجوا إلى الغلو والتكفير واستباحة الدماء.

ولهذا كان السلف يقولون: من كان على الأثر اهتدى، ومن أعرض عنه ضل وإن أكثر من الاستدلال.



الفصل الثالث

الجهل بقواعد اللغة العربية

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف يؤثر الخطأ في فهم أدوات اللغة العربية على تفسير القرآن؟

المشهد الأول: هل «لن» تعني التأييد؟

كان الشيخ يقرأ مع طلابه قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ [سورة الأعراف: آية ١٤٣].

فقال أحد الطلاب: يا شيخ، قرأت أن بعض المفسرين استدل بهذه الآية على استحالة رؤية الله مطلقاً في الدنيا والآخرة.

الشيخ: وكيف استدلوا؟

الطالب: قالوا: إن كلمة: ﴿لَنْ﴾ تفيد النفي المؤبد فمعنى: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ أي لن تراني أبداً.
فسكت الشيخ قليلاً.

ثم قال: الشيخ قبل أن نتكلم في العقيدة... فلتكلم في اللغة.

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: هل ﴿لَنْ﴾ في لغة العرب تفيد التأييد دائماً؟
فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: اقرؤوا قول الله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ
الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [سورة يوسف: آية ٨٠].

الطالب: لكنه غادر الأرض بعد ذلك.

الشيخ: أحسنت. فلو كانت ﴿لَنْ﴾ للتأييد لما خرج أبداً.

ثم قال: الشيخ: واقرأوا قول مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا﴾ [سورة مريم: آية ٢٦].

الطالب: وهي كلمت الناس بعد ذلك.

الشيخ: أحسنت.

ثم قال الشيخ: بل تأملوا قول الله تعالى عن اليهود: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ
أَبَدًا﴾ [سورة البقرة: آية ٩٥].

الطالب: ومع ذلك يتمنون الموت يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٧٧].

الشيخ: أحسنت.

ثم قال الشيخ: فأين الدليل اللغوي على أن ﴿لَنْ﴾ تفيد التأييد المطلق؟

فسكت الطلاب.

الطالب: إذن الخطأ بدأ من تفسير ﴿لَنْ﴾ تفسيرًا غير صحيح؟

الشيخ: نعم. ثم بُني على هذا الخطأ اللغوي مذهب عقدي كامل.

لحظة اكتشاف

قال الطالب: إذن قبل أن أستدل بالآية على مسألة عقدية كبرى، يجب أن أتأكد من صحة الفهم اللغوي أولاً.

فقال الشيخ: ولهذا كان العلماء يقولون: من جهل العربية أخطأ في فهم الشريعة.

ما التفسير الصحيح؟

الصحيح أن كلمة: ﴿لَنْ﴾ تفيد نفي الفعل في المستقبل أما دعوى أنها تفيد التأييد المطلق فلا دليل عليها من لغة العرب ولهذا استدل أهل السنة على أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَنِ﴾ إنما هو نفي للرؤية في الدنيا في ذلك المقام، لا نفي للرؤية مطلقاً في الآخرة.

ويؤيد ذلك النصوص الكثيرة من القرآن والسنة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾

[سورة القيامة: الآيات ٢٢-٢٣].

❁ فائدة نفيسة

الخطأ في فهم أداة لغوية صغيرة قد يؤدي إلى خطأ كبير في العقيدة والتفسير.

❁ القاعدة الذهبية

لا يجوز بناء المعاني العقدية على دعوى لغوية لا يشهد لها استعمال العرب ولا نصوص القرآن.

❁ خلاصة المشهد

من أسباب الخطأ في التفسير:
الجهل بقواعد اللغة العربية أو تحميل الألفاظ ما لا تحتمله.
فالزمخشري ومن وافقه بنوا نفي الرؤية على أن «لن» تفيد التأييد،
مع أن الاستعمال القرآني والعربي لا يدل على ذلك.
ولهذا كان المفسر الراسخ يبدأ بتحرير المعنى اللغوي الصحيح، ثم
يبني عليه فهمه للآية، لا العكس.



الفصل الرابع

الابتعاد عن فهم مقاصد نزول القرآن وأهدافه الأصلية

✽ المهارة التي سنتعلمها

كيف نحافظ على فهم النصوص في ضوء مقاصدها الشرعية وأهدافها الكلية؟

المشهد الأول: هل يدخل الجنة من قتل اليتيم؟

كان الشيخ يشرح لطلابه خطورة الوقوف عند ظاهر الألفاظ دون فهم مقاصد الشريعة.

فقال لهم: بلغني عن بعض أهل البدع قول عجيب.

الطالب: وما هو يا شيخ؟

الشيخ: قالوا: لو أن رجلاً أخذ من مال يتيم فلساً واحداً استحق النار. لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [سورة النساء: آية ١٠]

الطالب: وماذا قالوا أيضاً؟

الشيخ: قالوا: ولو قتل اليتيم نفسه أو بقر بطنه فلا يدخل في هذا الوعيد. لأن الآية لم تذكر ذلك!

فضحك بعض الطلاب من غرابة الكلام.

فقال الشيخ: ولا تعجلوا فلهم مثال آخر.

الطالب: وما هو؟

الشيخ: من قذف امرأة محصنة أقيم عليه الحد أما من قذف رجلاً محصناً فلا حد عليه.

الطالب: ولماذا؟

الشيخ: قالوا: لأن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [سورة النور: آية ٤] ولم يقل: المحصنين.

فسكت الطلاب.

ثم قال الشيخ: هل تشعرون أن هناك خللاً؟

الطالب: نعم. لكن أين موضعه؟

الشيخ: موضعه أنهم نظروا إلى الألفاظ المجردة ولم ينظروا إلى مقاصد الشريعة.

الطالب: كيف ذلك؟

الشيخ: ما المقصود من تحريم أكل مال اليتيم؟

الطالب: حفظ حق الضعيف.

الشيخ: أحسنت. فإذا كان الشرع قد توعد من أخذ بعض ماله. فكيف بمن قتله وأهلك نفسه؟

الطالب: هذا أولى بالوعيد.

الشيخ: وهذا ما يسميه العلماء: فهم المقصود الشرعي.

ثم قال الشيخ: وما المقصود من حد القذف؟

الطالب: حفظ الأعراض.

الشيخ: وهل عرض الرجل أقل حرمة من عرض المرأة؟

الطالب: لا.

الشيخ: إذن كيف يقال: يعاقب من قذف المرأة ولا يعاقب من قذف الرجل؟

الطالب: هذا يناقض مقصد التشريع نفسه.

الشيخ: أحسنت.

لحظة اكتشاف 

قال الطالب: إذن الخطأ أنهم تعاملوا مع النصوص كأنها ألفاظ منفصلة ولم ينظروا إلى الغايات التي نزل القرآن لتحقيقها.

فقال الشيخ: وهذا من أخطر أسباب الانحراف في الفهم.

❁ ما التفسير الصحيح؟

الشريعة لم تنزل لمجرد تعداد الألفاظ والصور الجزئية.
بل جاءت لتحقيق مقاصد عظيمة كحفظ الدين والنفس والعرض
والمال والعقل.

فإذا ورد النص في صورة معينة، وكان المعنى الذي من أجله شرع
الحكم موجوداً في صورة أخرى مساوية لها أو أولى منها، لم يجز إلغاء
ذلك المعنى والوقوف عند ظاهر اللفظ فقط.

ولهذا كان العلماء ينظرون إلى النصوص في ضوء مقاصدها الشرعية
وأهدافها الكلية، لا إلى مجرد الألفاظ المجردة عن معانيها.

❁ فائدة نفيسة

فهم المقاصد يعصم من الجمود على الظواهر.

❁ القاعدة الذهبية

من نظر إلى الألفاظ وحدها ضل، ومن نظر إلى المقاصد وحدها
ضل، وإنما الهدى في الجمع بين النص ومقصوده.

❁ خلاصة المشهد

من أسباب الخطأ في التفسير:

الوقوف عند ظاهر اللفظ مع إهمال الحكمة التي نزل النص لتحقيقها فالقرآن لم ينزل ألفاظاً مجردة، بل نزل هداية وتشريعاً وإصلاحاً للناس. ومن فهم المقاصد مع النصوص اهتدى إلى الصواب، ومن عزل أحدهما عن الآخر وقع في الغلو أو التقصير.

وأرى أن هذا المشهد يصلح أن يكون الخاتمة التربوية للكتاب كله؛ لأن الرسالة التي خرجنا بها من جميع الأبواب يمكن تلخيصها في جملة واحدة:

التفسير الصحيح هو فهم النص كما فهمه السلف، وفق لغة العرب، وجمع الأدلة، ومراعاة مقاصد الشريعة، بعيداً عن الهوى والتكلف



خاتمة الكتاب

وبعد...

فإن هذا الكتاب ليس المقصود منه جمع أخطاء المفسرين وتتبع الزلات، وإنما المقصود بيان الأسباب التي أوقعت في الخطأ عند تفسير كتاب الله تعالى، حتى يكون طالب العلم على بصيرة من أمره، فيسلك سبيل السلامة في فهم القرآن، ويجتنب مسالك الانحراف والزلل.

وقد تبين من خلال هذه الرحلة أن أكثر الأخطاء التفسيرية ترجع إلى أصول معلومة؛ كالإعراض عن النصوص الصحيحة، أو مخالفة فهم السلف، أو التأثر بالأهواء والبدع، أو الجهل بقواعد اللغة والترجيح، أو الغفلة عن مقاصد القرآن الكريم.

وإذا كان الخطأ في فهم كلام البشر يسيراً، فإن الخطأ في فهم كلام الله أعظم شأنًا وأشد خطرًا؛ ولذلك كان السلف يعظمون القول في التفسير، ويتحرزون من القول على الله بغير علم.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الفهم الصحيح لكتابه، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وأن يهدينا إلى الصواب في القول والعمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

- ٤..... مقدمة الكتاب ❁
- ٧..... الباب الأول: العدول عن مصادر التفسير الأصلية وأصوله الصحيحة الثابتة ❁
- ٨..... ■ الفصل الأول: الاجتهاد في تفسير الآية مع وجود النص المفسر لها
- ٨..... ○ المشهد الأول: «ولكن الآية تحتل هذا المعنى!»
- ١٣..... ■ الفصل الثاني: الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة
- ١٣..... ○ المشهد الثاني: «وجدت تفسيراً عجيباً لهذه الآية!»
- ١٩..... ■ الفصل الثالث: الأخذ بالإسرائيليات
- ١٩..... ○ المشهد الثالث: «هل كان طوله ثلاثة آلاف ذراع؟!»
- ٢٤..... ■ الفصل الرابع: الاعتماد على الظنون والحكايات
- ٢٤..... ○ المشهد الرابع: «لكن القصة مؤثرة جداً!»
- ٣٠..... ■ الفصل الخامس: الاعتماد على مجرد اللغة وتقديمها على الأثر الصحيح
- ٣٠..... ○ المشهد الخامس: «لكن العربية تدل على ذلك!»
- ٣٥..... ■ الفصل السادس: الاعتماد على الفروض المجازية والتذرع بالتمثيل والتخييل
- ٣٥..... ○ المشهد السادس: «أليس هذا من باب التصوير البلاغي؟!»
- ٣٩..... ■ الفصل السابع: الولوع بالفلسفة والكلام
- ٣٩..... ○ المشهد السابع: «وأين السواحر من القوة النباتية؟!»
- ٤٤..... ■ الفصل الثامن: الاستناد إلى مجرد العقل وتفضيله على النقل الصحيح

- المشهد الثامن: «لكن العقل لا يتقبل هذا التفسير!» ٤٥
- الفصل التاسع: الأخذ عن المبتدعة وأصحاب الأهواء ٥١
- المشهد التاسع: «لكن الآية تقول: لا ترونهم!» ٥١
- ❁ الباب الثاني: أخطاء الفهم والاستدلال في تفسير القرآن ٥٦
- الفصل الأول: عدم الإحاطة بالناسخ والمنسوخ ٥٧
- المشهد الأول: هل كل تخصيص نسخ؟ ٥٧
- المشهد الثاني: هل كل بيان نسخ؟ ٦١
- المشهد الثالث: هل زوال السبب يعني النسخ؟ ٦٥
- المشهد الرابع: هل كل زيادة على النص نسخ؟ ٦٩
- المبحث الثاني: إحكام ما ثبت نسخه ٧٣
- المشهد الخامس: هل بقي التخيير بين الصيام والإطعام؟ ٧٣
- الفصل الثاني: الخلل في منهج الاستدلال بالآيات والإخلال بالأصول المأمور بها ٧٧
- المشهد الأول: هل اليد تعني القدرة؟ ٧٧
- المشهد الثاني: حين يصبح التأويل وسيلة لهدم النص ٨١
- المشهد الثالث: هل يكفي أن آخذ آية واحدة؟ ٨٥
- المشهد الرابع: هل كل من انتسب إلى دين سماوي ناجٍ؟ ٨٨
- المشهد الخامس: هل كل قول لعالم يُتبع؟ ٩٢
- المشهد السادس: هل كل ما لا أتصوره أردده؟ ٩٥
- الفصل الثالث: الاعتماد على المأثور في كتب التفسير دون الاجتهاد في التمييز بين

- صحيحه وسقيمه ١٠١
- المشهد الأول: هل كل ما في كتب التفسير صحيح؟ ١٠١
- ❁ الباب الثالث: انحراف النصوص القرآنية للأهواء والتعصبات والبدع ١٠٦
- الفصل الأول: التعصب المذهبي والسياسي ١٠٧
- المشهد الأول: هل تكفي آيات الوعيد وحدها؟ ١٠٧
- المشهد الثاني: هل أفسر الآية أم أبحث عما يؤيد مذهبي؟ ١١١
- الفصل الثاني: بث الزندقة والإلحاد في التفسير ١١٥
- المشهد الأول: هل أخطأت الآية أم أخطأ الفهم؟ ١١٥
- الفصل الثالث: نصرة الأهواء ونشر البدع ١٢٠
- المشهد الأول: هل كل ما حكاه القرآن مشروع؟ ١٢٠
- الفصل الرابع: تأويلات الصوفية والباطنية للآيات ١٢٥
- المشهد الأول: هل المائدة هي المعارف الكشفية؟ ١٢٥
- الفصل الخامس: دعوة التجديد والثورة على القديم ١٢٩
- المشهد الأول: هل جاء التفسير أولاً أم النتيجة أولاً؟ ١٢٩
- الفصل السادس: التكلف في التفسير العلمي ١٣٤
- المشهد الأول: هل تحولت الطيور إلى ميكروبات؟ ١٣٤
- الفصل السابع: إنشاء معانٍ ومعتقدات ثم التكلف في حمل ألفاظ القرآن عليها ١٣٩
- المشهد الأول: من أين جاءت الثلاثة أيام والأربعون يوماً؟ ١٣٩
- ❁ الباب الرابع: القصور في باب الشروط اللازمة للتفسير ١٤٣

- ١٤٥  الباب الرابع : القصور في باب الشروط اللازمة للتفسير
- ١٤٥ ■ الفصل الأول : القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين
- ١٤٥ ○ المشهد الأول : هل السعي بين الصفا والمروة سنة أمر ركن؟
- ١٥٠ ■ الفصل الأول : القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين
- ١٥٠ ○ المشهد الثاني : أين نقف في الآية؟
- ١٥٤ ■ الفصل الأول : القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين
- ١٥٤ ○ المشهد الثالث : أي الإمامتين وأي الإحيائين؟
- ١٥٩ ■ الفصل الأول : القصور في تطبيق قواعد الترجيح عند المفسرين
- ١٥٩ ○ المشهد الرابع : أي زكاة أراد الله؟
- ١٦٤ ■ الفصل الثاني : الإعراض عن منهج السلف الصالح في التفسير
- ١٦٤ ○ المشهد الأول : كلمة حق أريد بها باطل
- ١٦٩ ■ الفصل الثالث : الجهل بقواعد اللغة العربية
- ١٦٩ ○ المشهد الأول : هل «لن» تعني التأييد؟
- ١٧٣ ■ الفصل الرابع : الابتعاد عن فهم مقاصد نزول القرآن وأهدافه الأصلية
- ١٧٣ ○ المشهد الأول : هل يدخل الجنة من قتل اليتيم؟
- ١٧٨  خاتمة الكتاب
- ١٧٩  الفهرس

